الفصل السادس

شعراء السياسة والمديح والهجاء

١

شعراء الخلفاء العباسيين

عرفنا في كتاب العصر العباسي الأول أن حزب الخوارج الذي كان يصارع الأمويين مصارعة عنيفة خمد أواره، ولم تبق منه حينئذ إلا أسراب قليلة حتى إذا كان في هذا العصر العباسي الثاني كادت تجف هذه الأسراب، ولم يعد من يعلن أنه خارجي أو يدافع عن الخوارج إلا أفراد قد نجدهم هنا أو هناك دون أن يكونوا حزباً أو يعملوا على نشر دعوة، إنما هي أفكار قد تعن لشخص ،وقد يتبناها، ولكن دون أن يحمل من أجلها السلاح ودون أن يتغنى بها شعراً، غلا ما كان من صاحب الزنج فإنه مزج في دعوته بين التشيع ومذهب الأزارقة من الخوارج على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع، إذ كان يستحل قتل أطفال المسلمين ونساءهم ويرى المسلمين جميعاً كفاراً ينبغي استئصالهم، بالضبط على نحو ما كان يذهب الأزارقة. ولكن حتى هذه الحركة الثائرة حركة الزنج لا نستطيع أن تسميها حركة من حركات الخوارج، لأنها كانت تزعم أو يزعم صاحبها أنها حركة شيعية ناسباً نفسه إلى فاطمة الزهراء كذباً وافتراء. وكأنما كان اضمحلال مذاهب الخوارج هو الذي جعله ينسب دعوته إلى البيت العلوي.

أما حزب الشيعة فقد ظلت نيرانه لا تخمد في هذا العصر، بل لعلها ازدادت اشتعالاً، بكثرة من كانوا يثورون من العلويين في الحجاز وفي طبرستان وشرقي الدولة، وكان وراء هذه الثورات شعر كثير يؤازرها ويناصرها ويرمي بقذائفه وشعله على العباسيين. وكان كثير من الشعراء يقف مع العباسيين، بل لقد كانت كثرتهم الغامرة تقف معهم؛ لأنهم أصحاب الدولة وفي أيديهم خزائنها وأموالها يكيلون لهم منها كيلاً، فكان طبيعياً أن يكثر مداحهم ودعاتهم، بل إن كثيرين من شعراء الشيعة أنفسهم كانوا يظهرون غير ما يبطنون، فيمدحون هذه الخليفة المعتدل الذي لا يحمل على البيت العلوي ولا يضطغن مثل المنتصر، وكان منهم المتحامل المبغض مثل أبيه المتوكل أول خلفاء هذا العصر، وقد مر بنا أمره بحرث قبر الحسين ومحوا أرضه ومنع الناس من زيارة مكانه وكذلك زيارة قبر أبيه في النجف، وغدا آل أبيي طالب في محنة عظيمة طوال عهده يخافون

على أنفسهم من القتل أو من الحبس. وتقرب إليه غير شاعر من مثل علي بن الجهم بشتم علي رضي الله عنه كما أسلفنا، إما نصا وإما تعريضاً كقول الجماز أحمد ندمائه[١]:

ليس لي ذنب إلى الشـ ـيعة إلا خلتين

حب عثمان بن عفا ن وحب العمرين

يريد بالعمرين أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب، ملوحاً بأنه من أهل السنة، وأنه على مذهب المتوكل في التسنن ومقت الشيعة. وفتح المتوكل أبوابه للشعراء كي يمدحوه ويمدحوا بيته ويبرهنوا على أنه هو البيت الوارث حقاً للخلافة، ملوحين في وجوه العلويين ومن يقفون معهم من الشيعة. وعرف الشعراء فيه هذا الجانب، فاستغلوه يقدمهم ابن الجهم ومروان بن أبي الجنوب وغيرهما كثيرون، وأتوه من كل فج من الشام والموصل والكوفة والبصرة والجزيرة العربية. وكان ممن أقبل عليه من الكوفة أبو الشبل البرجمي، حتى إذا دخل عليه أنشده قصيدة مؤلفة من ثلاثين بيتاً استهلها بقوله[٢]:

أقبلي فالخير مقبل واتركي قول المعلل

وثقي بالنجح إذ أبـ ـصرت وجه المتوكل

وما إن انتهى منها حتى أمر له بألف درهم لكل بيت، فانصرف بثلاثين ألف درهم. وكان يغدو ويروح وفي ركابه البحتري يمدحه في كل مناسبة مشيداً بآبائه ووراثته لنور النبوة وإمامته وعهده وعدله، ويتحول إلى ما يشبه داعية له في كل عمل من أعماله. ومن طريف ما نقرأ من مدائح للمتوكل عنده غيره مدحه لإبراهيم بن المدبر وكان لا يزال شاباً يعمل في دواوينه، فمرض المتوكل ثم عوفي، ودخل الناس على طبقاتهم يهنئونه بالإبلال من مرضه، ودخل إبراهيم، ولم يكد يقف بين يديه حتى أنشده قصيدة يهنئه فيها بسلامته مهللاً مبتهجاً مع المبتهجين المهللين، وفيها يقول[٣]:

اليوم عاد الدين غـ ـض العود ذا ورق نضير

يا رحمة للعالمي ن ويا ضياء المستنير

يا حجة الله التي ظهرت له بهدى ونور

---

[١] معجم الشعراء للمرزباني (طبعة الحلبي) ص٣٧٥.

[٢] الأغاني (طبع دار الكتب المصرية) ١٤/١٩٣.

[٣] أغاني (طبعة الساسي) ١٩/١١٤.

والمبالغة واضحة وكأننا بإزء غال من غلاة الشيعة يمدح إمامه، وقد لعبت فيما بعد كلمة "حجة الله" دوراً كبيراً في المذهب الإسماعيلي الفاطمي. وكان طبيعياً أن يطرب المتوكل حين سمع القصيدة، فيأمر له بخمسين ألف درهم ويتقدم إلى وزيره عبيد الله بن يحيى أن يوليه عملاً جليلاً ينتفع به. وكان كثيرون يسيل لعابهم لمثل هذا العطاء الجزيل، حتى كبار الكتاب من أمثال إبراهيم بن العباس الصولي، وكانوا ما يزالون ينتهزون الفرص من الأعياد والمناسبات، وكان من أكبر هذه المناسبات عقد المتوكل البيعة لولاة العهود أبنائه الثلاثة: المنتصر فالمعتز فالمؤيد، وصنع لذلك موكباً ضخماً، سار فيه مع أولاده حتى نزل القصر الذي سماه العروس وأذن للناس فدخلوا إليه، فلم تكاملوا بين يديه وقف الصولي بين الصفين، واستأذن في الإنشاد فأذن له فقال[١]:

أضحت عرى الإسلام وهي منوطة ... بالنصر والإعزاز والتأييد

بخليفة من هاشم وثلاثة ... كنفوا الخلافة من ولاة عهود

قمر توافت حوله أقماره ... فحففن مطلع سعده بسعود

كنفتهم الآباء واكتنفت بهم ... فسعوا بأكرم أنفس وجدود

فأمر له المتوكل بمائة ألف درهم وأمر له ولاة العهود بمثلها. ويتولى بعده المنتصر، فيرفع المحنة عن آل أبي طالب ويدفع عنهم الأذى ويرد عليهم الأمن، ويتغنى شعراؤه بهذا الصنيع، يتغنى البحتري ويتغنى غيره، ويتغنى شعراء الشيعة من أمثال يزيد[٢] بن محمد المهلبي. وسرعان ما يخلفه المستعين، وفيه يقول أحمد بن يحيى البلاذري[٣]:

ولو أن برد المصطفى إذ لبسته ... يظن لظن البرد أنك صاحبه

وقال وقد أعطيته ولبسته ... نعم هذه أعطافه ومناكبه

ويتولى الخلافة بعده المعتز، وكان شاعراً مجيداً، ولو امتدت به الخلافة لكان مثل ابنه عبد الله في خصب ملكاته الشعرية، وقصده كثير من الشعراء، ليأخذوا جوائزه أو ليصبحوا من ندمائه

---

[١] أغاني (طبعة دار الكتب) ٦٤/١٠ وانظر الطبري ١٨١/٩ والديوان (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) مع مجاميع شعرية أخرى ص ١٣١.

[٢] مروج الذهب ٥٢/٤.

[٣] النجوم الزاهرة ٩٨/٣.

إذ كان صاحب لهو وقصف، فلم يكد يتسلم مقاليد الخلافة حتى فتح أبوابه لهم، وكان ممن دخل عليه وأنشده مهنئاً أبو علي البصير قائلاً[١]:

آب أمر الإسلام خير مآبة وغدا الملك ثابتاً في نصابه

مستقراً قراره مطمئناً آهلاً بعد نأيه واغترابه

وتطول مدة المعتمد نحو عشرين عاماً أو تزيد سنوات، وكان فيه لهو وانغماس في الترف، ولكن يده كانت مكفوفة عن المال، كفها أخوه وولي عهده الموفق أشد بني العباس شكيمة لعصره وأحزمهم بكل معاني الحزم وأروعه. وكأنما اختاره القدر في عصر أخيه لينازل الزنج وصاحبهم في ثورتهم العارمة يقضي عليها قضاء مبرماً. فكان طبيعياً أن ينصرف الشعراء عن الخليفة إلى ولي عهده وأمجاده الحربية في وقائعه مع الزنج من جهة ومع يعقوب الصفار من جهة ثانية، وقد صورنا هذه الوقائع في غير هذا الموضع، وفي وقائعه مع الصفار يقول ابن فيد الطائي مصوراً انتصاره[٢]:

وولي عهد المسلمين موفق بالله أمضى من شهاب ثاقب

يا فارس العرب الذي ما مثله في الناس يعرف آخر لنوائب

وتولى الخلافة المعتضد، وكان مثل أبيه شجاعة وفروسية حزماً، ومر بنا أنه كان من مداحه ابن الرومي فهو يهنئه في الأعياد المختلفة وينتهز كل مناسبة لينظم فيه أشعاره مهللا ممجداً. ونظم فيه ابن المعتز كثيراً من مدائحه، كما أسلفنا، وكن قرة عينه، وله صنع أرجوزته التاريخية التي صور فيها عهده تصويراً بارعاً، وفيها أصلى خصوم العباسيين ناراً حامية، مصوراً بشاعة ثورتي الزنج والقرامطة، وكأنما جرد من فسه محامياً أمام أبناء عمومته العلويين مدافعاً عن بيته وحقوقه في الخلافة، ومر بنا ذلك في حديثنا عنه. ويتولى المكتفي بعد أبيه المعتضد ويسبغ عليه ابن المعتز مدائحه، كما يسبغها أبو بكر الصولي وغيره. ثم تكون خلافة المقتدر وتأخذ الدولة في الانتكاس. ويظل الشعراء يقدمون مدائحهم للخلفاء طلباً للنوال من أمثال ابن بسام[٣] وغير ابن بسام. ونحن نقف عند ثلاثة من شعراء العصر طالما مدحوا خلفاءه، وهم مروان بن أبي الجنوب وعلي بن يحيى المنجم وأبو بكر الصولي.

---

[١] مروج ٤/٨٢.

[٢] طبري ٩/٥٢٠.

[٣] أنظر أخبار الراضي والمتقي في كتاب الأوراق للصولي.

مروان بن أبي الجنوب أبو السمط[١]

حفيد مروان بن أبي حفصة شاعر الخليفة المهدي، اصل موطنهم اليمامة، وقد سلك مسلك جده في الطعن على آل علي بن أبي طالب، فكان طبيعياً أن يفتح له جعفر المتوكل أبواب قصره وقد بلغ من حنقه على أبناء عمه العلويين ما صورناه في غير هذا الموضع. ويبدو أن الواثق لم يكن يعجب به ولا بشعره فنفاه إلى اليمامة، فلما ولي الخلافة بعده المتوكل بعث إلى ابن أبي دؤاد مستشاره بقصيدة مدحه بها، ذم فيها ابن الزيات وزير الواثق ذماً قبيحاً، وكان المتوكل قد قبض على أمواله وعذبه في تنور من خشب ملأه بمسامير من حديد حتى مات فقال فيه مروان:

وقيل لي الزيات لاقي حمامه ... فقلت أتاني الله بالفتح والنصر

لقد حفر الزيات بالغدر حفرة ... فالقى فيها بالخيانى والغدر

وكان ابن الزيات أول من عمل هذا التنور، وعذب به نفراً. وما إن صارت القصيدة إلى ابن أبي دؤاد حتى طار إلى المتوكل وأنشده البيتين السالفين، فأمره بإحضاره. فقال له إنه باليمامة، كن الواثق نفاه لمودته لأمير المؤمنين، وعلي دين: ستة آلاف دينار، فقال المتوكل: يعطاها. فأعطيت له، وجيء به إلى سامراء، فدخل على المتوكل وأنشده قصيدة لاميه يقول فيها:

كانت خلافة جعفر كنبوة ... جاءت قبلا طلب ولا بتنحل

وهب الإله له الخلافة مثلما ... وهب النبوة للنبي المرسل

فأمر له بخمسين ألف درهم. وأخذت هبات المتوكل الغدقة تنثر عليه نثراً، فهو يغدو ويروح عليه بالمدائح، والمتوكل يسبغ عليه عطاياه، وكان مما أخذ فيه نوالاً كبيراً قصيدته التالية التي أنشدها المتوكل حين عقد ولاية العهد لأبنائه الثلاثة: محمد المنتصر وعبد الله المعتز وإبراهيم المؤيد، وفيها يقول:

ثلاثة أملاك فأما محمد ... فنور هدى يهدي به الله من يهدي

وأما أبو عبد الإله فإنه ... شبيهك في التقوى ويجدي كما تجدي

وذو الفضل إبراهيم للناس عصمة ... تقي وفي بالوعيد وبالوعد

---

[١] راجع في أخبار مروان وأشعاره الشعر والشعراء لابن قتيبة وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٢ ومروج الذهب ٥٢/٤ ، ٨٣ والطبري ٢٣٠/٩ والأغاني (طبعة الساسي) ٣٤/٩ وتاريخ بغداد ١٥٣/١٣ والفهرست لابن النديم ٢٣٥ ومعجم الشعراء للمرزباني ص ٣٢١ والموشح ص ٣٤٤ ووفيات الأعيان وخزانة الأدب للبغدادي ٤٤٧/١.

فأولهم نور وثانيهم هدى وثالثهم رشد وكلهم مهدي

فلما أتم إنشادها أمر له المتوكل بمائة وعشرين ألف درهم وخمسين ثوباً وببغلة وفرس وحمار، فما برح حتى قال في شكره:

تخير رب الناس للناس جعفراً فملكه أمر العباد تخيرا

حينئذ رد عليه ضياعه التي كان ابن الزيات قد صادرها، وجعل له راتباً في الديوان، ولعل أهم من كل هذا المديح أنه دافع بحرارة في جوانب من مديحه عن حقوق العباسيين في الخلافة مؤتسياً في ذلك بدده مروان بن أبي حفصة، وائتسى به أيضاً في الرد على العلويين ونقض ما يدعونه من وراثة الرسول في الخلافة، غذ هم أبناء السيدة فاطمة الزهراء والعم مقدم على أولاد البنت في الوراثة حسب حكم الشريعة. ومن خير ما يصور ذلك عنده قصيدته الميمية التي تمضي على هذا النمط:

ملك الخليفة جعفر للدين والدنيا سلامه

لكم تراث محمد وبعدلكم تنفي الظلامه

يرجو التراث بنو البنا ت وما لهم فيها قلامه

والصهر ليس بوارث والبنت لا ترث الإمامه

أخذ الوراثة أهلها فعلام لومكم علامه

وهو يشير بوضوح في الأبيات إلى أن مصاهرة علي بن أبي طالب للرسول عليه السلام لا توجب له وراثة، كما يشير إلى أن السيدة فاطمة بنت، والبنت لا ترث الولاية على المسلمين ولا تحق لها الإمامة، فكيف تورث الإمامة من قبلها؟ والشريعة واضحة في ذلك. وطار المتوكل حين سمع القصيدة ابتهاجاً، وقلده اليمامة والبحرين وخلع عليه أربع خلع، وخلع عليه ولي عهده المنتصر. وأمر المتوكل له بثلاثة آلاف دينار فنثرت على رأسه، وأمر ابنه المنتصر وسعداً الإيتاخي يلتقطانها له دون أن يلتقط هو منها شيئاً إكراماً له، ويقال إنه حشا فمه جوهراً، ومن طريف ماله فيه قوله:

تخشى الإله فما تنام عناية بالمسلمين وكلهم بك نائم

لو كان ليس لهاشم فيما مضى سلف سواك لقدمت بك هاشم

وقال بعض معاصريه إن المتوكل أعطاه مائتي ألف دينار من ورق (فضة) وذهب وكسوة. وكانت هذه العطايا الغامرة تملأ نفوس بعض الشعراء من حوله وحول المتوكل حسداً أن تعلو جائزته جوائزهم، فكانوا يتبادلون معه بعض الأهاجي حتى شاعر نابه مثل علي بن الجهم نراه

يتهاجى معه، ولم يكن مروان يصمت بل كان يبادر أحياناً إلى الهجاء، ويروي أن ابن الجهم قال في فاتحة قصيدة له في المتوكل:

الله أكبر والنبي محمد　　والحق أبلج والخليفة جعفر

ولم يكد يسمع مروان قوله، حتى أعمل فكره، وبادره يقول له ساخراً منه سخرية شديدة بل سخرية مرة شديدة المرارة:

أراد ابن جهم أن يقول قصيدة　　بمدح أمير المؤمنين فأذنا

فقلت له لا تعجلن بإقامة　　فلست على طهر فقال: ولا أنا

وكان يقدم لمدائحه بنسيب رقيق يحيى فيه نجداً ويدعو لها ولأهلها بالسقيا ويتمنى زورةً لهم أو إلمامة قصيرة. وله أبيات جيدة يتحدث فيها عن الشيب، والشباب وعهده وعهوده، وحبه الماضي، وفيها يقول:

شمس الشباب على اليوم طالعة　　وسوف تغرب إن الدهر ذو غير

إذا الشباب مضت عنا بشاشته　　فما نبالي متى صرنا إلى الحفر

لنا من الشوق أكباد مصدعة　　وأعي كحلت بالدمع والسهر

سقياً ورعياً لأظعان مولية　　فيها خرائد كالغزلان والبقر

ودعتهن وداعاً زادني كمداً　　ما كان إلا كورد الطائر الحذر

وله شعر في المعتز رواه المسعودي في المروج مما يدل على أنه عاش حتى عصره. ولعل فيما قدمنا من أشعاره ما يدل على خصب شاعريته وأنه كان مثل جده يعني بصقل أشعاره وانتخاب ألفاظه حتى تروق سامعيه بما فيها من جزالة وطلاوة.

علي[١] بن يحيى المنجم

من أصل فارسي أسلم أبوه يحيى على يد المأمون وخص به، ويقال إن جد يحيى أبرسام البزرج كان وزيراً لأردشير وصاحب أمره. وشملته عناية المأمون هو وابنه علي، وتوالى عليهما بره، وأخذ نجم الأسرة في التألق ببلاط المأمون والمعتصم، وتوثقت الصلة بين علي ومحمد بن اسحق بن إبراهيم المصعبي، ثم بينه وبين الفتح بن خاقان وزير المتوكل، ووصفه له وقدمه إليه،

---

[١] أنظر في حياة علي بن يحيى وأشعاره معجم الأدباء ١٤٤/١٥ ومعجم الشعراء للمرزباني ص ١٤١ والفهرست ص ٢١١ والأغاني (طبعة الساسي) ٢٢/٩ وتاريخ بغداد ١٢١/١٢ ومروج الذهب ١٩١/٤ والنجوم الزاهرة ٧٣/٣.

وأعجب به المتوكل وقربه منه، حتى صار أكبر ندمائه، يساعده في ذلك علمه الواسع بالرواية والأخبار. وكان أشبه بالموسوعيين فهو يأخذ من كل علم وكل أدب بطرف، مع إحسانه اختيار الطرائف والنوادر، حتى كان المتوكل لا يصبر على بعده، ويقال إنه بلغ مجموع ما وصله به ثلاثمائة ألف دينار، وخلفه المنتصر فغلب عليه أيضاً، وقدمه على جميع جلسائه، وقلده أعمال الحضرة، وأقره المستعين على ما تقلده من تلك الأعمال. ثم خلص الأمر للمعتز، فكان أول من طلبه لمنادمته على بن يحيى، وحين قدم عليه تلقاه أجمل لقاء وخلع عليه ووصله، وقلده الأسواق والعمارات، وقدمه على جميع الندماء ووصله بثلاثة وثلاثين ألف دينار وقلده قصره الكامل فبناه ووصله عند فراغه منه بخمسة آلاف دينار، وأقطعه ضيعة كبيرة. ثم أفضى الأمر على المعتمد، فحظى في عهده حظوة كبيرة، ووصله صلات سنية، وقلده أعمال الحضرة، وما زال يحظى برعايته ورعاية أخيه الموفق حتى نهاية حياته.

وابن المنجم نموذج رفيع لندماء الخلفاء، فقد كان هناك ندماء كثيرون مضحكون كل همهم إضحاك الخلفاء وإدخال السرور على نفوسهم بما يوردون على أسماعهم من الأجوبة الهازلة أو ما يدخلون على ملابسهم وحركاتهم من الصور المضحكة. وكان ابن المنجم مع ظرفه ما يورد على الخلفاء من النوادر والأخبار والقصص المستحبة، بل قل مع اكتمال خصال المنادمة فيه ومعرفته بضروب الثقافات، حتى قيل إنه طبيب ومنجم وأديب وشاعر ومغن وجليس ومضحك، مع هذا كله كان فيه غير قليل من الوقار، وكان يعد من رعاة الأدب في عصره حتى كان بيته مألفاً للأدباء، وكان يصل كثيراً منهم بالخلفاء والأمراء، ويستخرج لهم منهم الصلات، وكان يبلغ من عنايته بهم أن يهدي إلى الخلفاء والوزراء عنهم الهدايا الطريفة، حتى ينفحوهم بالنوار السابغ، وكان كثيراً ما يهب من ماله لمن يحرمون الصلات من الأدباء. وليس ذلك كل ما يرفع منه، فقد ألهمه تفكيره الصائب أن يستغل الأموال الكثيرة التي كانت تنثر عليه من المتوكل وغيره من الخلفاء في إقامة مكتبة ضخمة، مر بنا حديث عنها في غير هذا الموضع، وكان طلاب العلم يقصدونها من كل مكان والكتب مبذولة لهم، وكذلك النفقة مهما طالت إقامتهم. وبذلك كان من رعاة طلاب العلم والأدب في عصره، بل لعله كان أكبر رعاتهما، ولا شك في أن ما عرف عنه من خبرة تامة بالكتب وثقافة واسعة بها هو الذي جعل الفتح بن خاقان يطلب إليه صنع مكتبة له يباهي بها معاصريه. ومن تتمة ثقافته أن يذكر له من التصانيف كتاب الشعراء القدماء والإسلاميين، وكتاب أخبار اسحق الموصلي وكتاب الطبيخ، والكتابان الأخيران يتصلان بمنادمته لاتصالهما بأخبار المغنين وبتذوق الأطعمة.

وكان شاعراً، وله شعر كثير كما يقول ياقوت في ترجمته، غير أنه لم يكن يعجب بشعره، ولذلك لم يكثر من الاستشهاد به إلا ما جاء في سياق أخباره، لو أنه صنع لاطلعنا بوضوح على

أشعاره في الخلفاء والوزراء. ولعل أول شعر قاله ما نظمه في رثاء المأمون ومديح المعتصم، مما رواه ياقوت في ترجمته، وبدون ريب كانت له أشعار كثيرة في المتوكل ومن تلاه من الخلفاء، ونستطيع أن نتخذ صورة لهذه الأشعار قوله في المعتز حين استولى على مقاليد الخلافة:

بدا لابساً برد النبي محمد ... بأحسن مما أقبل البدر طالعاً

سمي النبي وابن وارثه الذي ... به استشفعوا أكرم بذلك شافعاً

وكل عزيز خشية منه خاشع ... وأنت تراه خشية الله خاشعاً

وهو شعر متوسط، شعر يعتمد على المناسبة الحاضرة، ولذلك كان يستساغ في وقتها كما تستساغ كلمات الندماء ونوادرهم وفكاهاتهم. وهكذا دائماً شعرهم، فهو إنما يعجب في لحظة قوله، ولذلك كان يروى مع أخبارهم. ومن هذا الطراز نفسه قصيدته في الفتح بن خاقان التي أنشد ياقوت منها بعض أبياتها، وله وراء ذلك أشعار يصور بها سمو نفسه، لعل من أطرافها قوله:

سيعلم دهري إذ تنكر أنني ... صبور على نكرانه غير جازع

وأني أسوس النفس في حال عسرها ... سياسة راض بالمعيشة قانع

كما كنت في حال اليسار أسوسها ... سياسة عف في الغنى متواضع

وأمنعها الورد الذي لا يليق بي ... وإن كنت ظمآناً بعيد الشرائع

فهو يصور نفسه صابرة لا جزع مهما ادلهمت الخطوب، كما يصور نفسه لا تهون في حال عسر أو شدة، بل تتقبلها راضية قانعة كما تقبلت اليسر قبلاً مزدرية مغرياته في تواضع غير مسف دون أي إحساس باستعلاء، وإنه ليمنع نفسه الإلمام بأي ورد دنى مهما كان ظمآن، كاظماً لظمئه، محتملاً لحرارة عطشه. وله في الطيف:

بأبي والله من طرقا ... كابتسام الصبح إذ خفقا

زادني شوقاً برؤيته ... وحشا قلبي به حرقا

زارني طيف الحبيب فما ... زاد أن أغري بي الأرقا

وكأنا أراد أن يحاكي البحتري في كثرة أشعاره التي نظمها في الطيف. ولا شك أنه من طراز متوسط، فأجنحته ليست من القوة بحيث تستطيع أن تحلق به في الأفق الذي يحلق فيه البحتري. ومرت بنا آنفاً رعايته للأدباء والشعراء، مما جعل غير شاعر ينظم فيه بعض مدائحه، مصوراً كرمه الفياض من مثل قول أبي هفان:

لربيع الزمان في الحول وقت ... وابن يحيى في كل وقت ربيع

رجل عنده المكارم سوق يشتري دهره ونحن نبيع

ولذلك حين وافاه القدر سنة ٢٧٥ عن أربعة وسبعين عاماً بكاه كثير من الشعراء، وفي مقدمتهم ابن بسام، وقد أنشدنا في غير هذا الموضع مرثيته له، وهي مرثية جيدة.

أبو بكر الصولي[١]

هو محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس الصولي من بيت كتابة وشعر، تقلد أصحابه كثيراً من الأعمال السلطانية، مثل عمه إبراهيم بن العباس، وكان أكبر كاتب في دواوين المتوكل. وهما من أسرة صول تكين أحد أمراء جرجان. كان قد ظفر به يزيد بن المهلب في بعض حروبه وهو وال على خراسان للحجاج، فأسلم على يديه، ولزمه وأصبح من رفاقه، حتى إذا ثار يزيد على بني أمية في أوائل القرن الثاني للهجرة ثار معه عليهم حارباً في صفوفه، ودارت عليهما معاً الدوائر فسقطا قتيلين في ميادين المعارك. وقد تتلمذ أبو بكر لعلماء عصره في بغداد: أبي داود السجستاني وثعلب والمبرد، وكذلك لأصحاب الأخبار والمؤرخين ولأصحاب الهندسة، وتدل صلته بالأخيرين على معرفته بعلوم الأوائل. وكان يحسن لعبة الشطرنج حتى قالوا إنه كان أكبر حاذق لها في زمنه. وأكب على معارف عصره إكباباً منقطع النظير، وجعله هذا الإكباب يعني بجمع الكتب، وما زال يجمعها حتى كون لنفسه مكتبة ضخمة تحدث عنها معاصروه، كما اسلفنا، وراعتهم فيها جلود الكتب المختلفة الألوان، غذ جعل لكل صف من الكتب لوناً، فصف أحمر وصف أخضر إلى غير ذلك. وفتحت له معارفه الواسعة ومهارته في لعبة الشطرنج أبواب الخلفاء منذ عهد المعتضد، وهو مع ذلك يغدو عليهم ويروح بمدائحه، وهم ينثرون عليه أموالهم، مما جعله يعيش معيشة رغدة. وكلفه المقتدر تعليم ولديه الراضي وهرون، فأحسن تعليمهما، وخرج أولهما شاعراً وأديباً لسناً، حتى إذا ولي الخلافة اتخذه نديمه ومستشاره. ويزور عنه الخليفة المتقي بعده فيترك بغداد إلى بجكم التركي حاكم واسط سنة ٣٢٩ ويتوفى المتقي سنة ٣٣٣ فيعود إلى بغداد وسرعان ما تحل به ضائقة، فيتركها على البصرة سنة ٣٣٥ حيث لبي نداء ربه ويقال بل إن الخليفة المستكفي عرف تشيعه لآل علي بن أبي طالب فطلبه، وفر منه إلى البصرة.

---

[١] أنظر في أخبار أبي بكر الصولي وأشعاره الفهرست ص ٢٢١ وتاريخ بغداد ٤٢٧/٣ ومعجم الشعراء للمرزباني ص ٤٣١ وديوان المعاني للعسكري (أنظر الفهرس) وذيل زهر الآداب ص ٢٤٥ ومعجم الأدباء ١٠٩/١٩ ووفيات الأعيان والنجوم الزاهرة ٢٩٦/٣ وله في كتابه أخبار الراضي والمتقي أشعار كثيرة.

وقد صنع الصولي دواوين كثيرة لطائفة كبيرة من الشعراء المحدثين في مقدمتهم أبو نواس وأبو تمام وابن الرومي وابن المعتز، وصنف كتباً جليلة في أخبار الخلفاء وسيرهم وأخبار من تقدم وتأخر من الشعراء والوزراء والكتاب والرؤساء. ومن كتبه النفيسة كتابه "الأوراق" وقد نشر منه ثلاثة أجزاء: جزء خاص بأخبار الشعراء المحدثين وجزء خاص بأشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم وجزء خاص بالخليفتين: الراضي والمتقي. ونشر له مصنفه أدب الكتاب وكتاب أخبار أبي تمام وهو فيه ينتصر له ضد خصومه، ولعل في ذلك ما يصور بصره بالشعر العباسي، وأنه كان يقف في دقة على أساليبه ومذاهبه؛ إذ نبه على أن أبا تمام صاحب مذهب جديد في الشعر ولام من يعيبونه ببعض أبيات فاته التوفيق فيها متناسين تحليقه في آفاق الشعر العليا التي تنقطع من دونها الرقاب.

وعلى هذا النحو كان أبو بكر الصولي شاعراً ناقداً عالماً، وكان مثقفاً ثقافة واسعة بكل مواد المعرفة في عصره. ولم يصل إلينا ديوانه ولكن وصلت طائفة من أشعاره التي كان ينشدها الراضي في حفلات القصر وفي المناسبات المختلفة دونها بنفسه في أخباره، كما وصلت إلينا مقطوعات متنوعة احتفظت بها الكتب الأدبية والتاريخية. وسقطت من يد الزمن مدائحه في المعتضد إلا بعض أبيات دالية ذكر المسعودي أنه أنشدها في قصيدة مدحه بها، وفيها يقول:

لأمير المؤمنين المعتضد　　بحر جود ليس يعدوه أحد

ولم يصل إلينا من مديحه للمكتفي سوى قصيدة واحدة، وقد اضطر- كما يقول- إلى أن ينشدها المتقي حين استولى على مقاليد الخلافة، وكان قد طلب إليه أن ينشده عاجلاً قصيدة يهنئه فيها بالخلافة، ويقول إنه وضع فيها كلمة المتقي بدلاً من كلمة المكتفي، وفيها يقول:

مددت على الإسلام أكناف نعمة　　لأعطافها ظل عليه ظليل

ولولا بنو العباس عم محمد　　لأصبح نور الحق فيه خمول

لكم جبلاً الله اللذان اصطفاهما　　يقومان بالإسلام حين يميل

نبوته ثم الخلافة بعدها　　وما لهما حتى اللقاء حويل[1]

وكل ما في القصيدة من صياغة وخيال يدل على أن الصولي كان يتكلف هذا المديح تكلفاً. حقاً هو يبالغ فيه ويغلو على عادة شعراء الدعوة العباسية، ولكن نحس أن الكلام يفقد الروح وأنه لا يصدر عن عاطفة حقيقية، وبالمثل ما رواه له عريب في ذيل الطبري من مديح للمقتدر، وحتى الراضي تلميذه الذي أغدق عليه عطاياه حتى لكأنما تحولت إلى نهر فياض نجد في

---

[1] حويل: تحول .

مدائحه له نفس هذا الطراز المتكلف. وكان لا يترك مناسبة من عيد أو نيروز أو فتح إلا أنشده فيها قصيدة، وقد تطول طولاً مسرفاً، ومع ذلك نفقد فيها الحرارة من مثل قوله يهنئه بانتصار جيوشه على مردويج الثائر بأصبهان:

آنس الله بالخليفة ملكاً ... موحش الربع واهن التأسيس

يا نسيم الحياة أضحكت دهراً ... كان لولاك دائم التعبيس

مردويج بسيف حظك مقتو ... ل فأهون بذاك من مرموس[1]

قصفته رياح أيامك الغر ... فأخمدن منه نار المجوس

وتولت بمأتم الدهر أيا ... م أتتنا تجر ذيل العروس

والتكلف واضح في الأبيات، والصور لا تقع في مكانها، فالخلافة كانت موحشة وكانت واهنة، والخليفة نسيم الحياة، نسيم أضحك دهراً كان عبوساً قمطريراً ومردويج لم يهزمه أبطال الدولة وإنما هزمه الحظ ورياح دولة الراضي الغراء، وخلعت الأيام سواد الحزن، وجاءت تجر ذيول الفرح. كلام متلاصق، وليس شعراً حياً نابضاً بروح، وربما كانت خير قصائده فيه قصيدته الدالية التي أنشدها في مجلسه لسنة ٣٢٧ وفيها يقول:

خليفة أكملت فضائله ... ففرعه طيب ومحتده

تعبد المجد فهو يملكه ... طارفه عنده ومتلده

قد رضى الراضي الإله لإصـ ... ـلاح زمان سواه مفسده

فهو بتفويضه الأمور إلى اللـ ... ـه بحسن التوفيق يعضده

ولا يخفى ما في هذه الأبيات من تكلف يتضح في بناء الشطر الثاني من البيت الأول على سابقه، كما يتضح في جعل المجد عبداً للممدوح وكأنه استذله، والجناس بين رضي والراضي شديد التكلف، وكلمه سواه نابيه في مكانها غير مستقرة والصياغة في البيت الرابع تتنافر أجزاؤها تنافراً شديداً. ومن هذا الطراز نفسه عزاؤه للراضي في أخيه هرون، وهو يستهله على هذا النمط:

تعز يا خير الوري عن أخ ... لم يشب الإخلاص باللبس

كان صديقاً وافراً وده ... صداقة الأنفس والجنس

تعز عنه بنبي الهدى ... محمد إذ حل في الرمس

---

[1] مرموس: من الرمس وهو القبر .

والقصيدة مزيج من الندب والتأبين والعزاء، مع أنه افتتحها بطلب التعزي والتسلي، فكان ينبغي أن يقصرها على العزاء لا أن يندب في هرون إخلاصه وصداقته لأخيه كما في هذه الأبيات، ولا يحاول أن يذكر همته وسؤدده مؤبناً له كما في أبيات تالية. ونحس نبواً شديداً في البيت الثاني إذ يذكر عن هرون أنه كان وافر الود، وكان يحسن أن يغير كلمة وافر بكلمة أخرى مثل صادق، وأيضاً فإنه جعل صداقته لأخيه صداقة جنس، والتعبير عن الرسول عليه السلام بأنه حل في الرمس خلو من رهافة الحس أو من الحس الأدبي الدقيق. وقد يكون مصدر التكلف في العزاء والمديح جميعاً أنه كان موالياً للعلويين كما قال بعض من ترجموا له، وكأن هذا الرثاء والمديح لم يكونا يتصلان بروحه وقلبه، فقلبه وروحه مع آل أبي طالب، ولسانه وحده مع العباسيين ومع ما يغدقون عليه من صلات ثرة. وقد يشهد لذلك أننا إذا تركنا مدائحه لبني العباس ونظرنا فيما روي له من غزل لقيتنا له مقطوعات كثيرة بديعة من مثل قوله:

أحببت من أجله من كان يشبهه ... وكل شيء من المعشوق معشوق

حتى حكيت بجسمي ما بمقلته ... كأن سقمي من جفنيه مسروق

وقوله يصف الدموع في ساعة الوداع، وهي تسقط بيضاء سقوطاً متتابعاً على خدود حمراء حمرة الورد في الربيع:

لو كنت يوم الوداع حاضرنا ... وهن يطفئن لوعة الوجد

لم تر إلا الدموع جارية ... تسقط من مقلة على خد

كأن تل الدموع قطر ندى ... يقطر من نرجس على ورد

وكان ينفذ في أثناء ذلك إلى كثير من الصور النادرة الغريبة التي تنبئ عن شاعرية جيدة من مثل قوله في بيان إعجابه بغناء إحدى القيان:

وغناء أرق من دمعة الصـ ... ـب وشكوى المتيم المهجور

وله في وصف أرمد ومحاولة تعليل رمده بعلة غريبة لا تقع إلا في عقل واهم بعيد الخيال بيتان كان القدماء يعجبون بهما إعجاباً شديداً إذ يقول:

يكسر لي طرفاً به حمرة ... قد خلط النرجس في ورده

ما احمرت العين ولكنه ... يكحلها من وردتي خده

وكأن هذه الأبيات وما وراءها من أبيات في الخمر لم نروها كانت تصدر عن نفسه، مما جعل صياغتها سوية وأخيلتها بديعة بعيدة الغرابة في بعض الأحيان. وله بجانب ذلك حكم يصور فيها عبر الدهر ومواعظه من مثل قوله:

يابانياً والدهر في نقضه　　يا راكضاً يسرع في ركضه

يلهو وأيدي الموت أخاذة　　من طوله طوراً ومن عرضه

فالإنسان يبني، ولا يعرف أن داره ستنقض بعد أيام، بل هو نفسه سينقضه الدهر ويحيله ضعفاً من بعد قوة، يوهن عظمه وينحل جسمه، ويحني ظهره ويأخذ من طوله ومن عرضه، حتى يصبح أنقاضاً خالصة، وكأنما الدنيا أضغاث أحلام. والصولي في كل هذه المقطوعات الأخيرة شاعر بارع، لا تنقصه جزالة الصياغة ولا روعة الخيال.

٢

شعراء الشيعة

ذكرنا فيما أسلفنا أن الخوارج خمدت دعوتهم وحروبهم منذ العصر العباسي الأول، وعم هذا الخمود في هذا العصر التالي بحيث لم يعودوا يكونوا حزب معارضة حقيقياً للدولة العباسية، وقد نهض بتلك المعارضة في أحد صورها حزب الشيعة فكان كثير من العلويين يخرجون ويعلنون خروجهم ويشهرون هم وأنصارهم سيوفهم في وجه الدولة، وكانت تلقاهم بجيوشها وقلما كتب لهم النصر، ولكن ما كانت حرب لهم تكاد تخمد حتى تنشب حرب أخرى ويشتد أوارها وبذلك ظلت المعارك بينهم وبين الدولة محتدمة طوال العصر. وتنبه لذلك المتوكل، فرأى أن يقف زيارة الشيعة لقبر الحسين وبكاءهم عنده وتفجعهم عليه، ومضى يأخذهم بغير قليل من الشدة، محرضاً شعراءه على النيل منهم ومن آل على عامة، وأمر- فيما أمر- بحبس الطالبيين في سامراء[1] وأخذ ينزل بهم نكالاً شديداً، ومع ذلك لم يسلم عهده من خروج نفر منهم في الحجاز على نحو ما سنرى عما قليل في حديثنا عن محمد بن صالح العلوي.

ولابد أن نلاحظ أن الكوفة كانت لا تزال أكبر مركز للشيعة وأن مذاهبهم التي عرفناها في العصر العباسي الأول كانت لا تزال حية، فكان كثيرون يؤمنون بالنظرية الزيدية، وأكثر منهم من كان يؤمن بالنظرية الإمامية الأثنى عشرية، وأخذت النظرية الإسماعيلية تجد لها أنصاراً، واستغلها القرامطة في ثورتهم، دون أن تصبح عقيدة حقيقية لهم، وبذلك كان ينبغي أن ننحيهم عن الشيعة. وملاحظة ثانية هي أن المذهب الشيعي الذي غلب على العراق حينئذ كان مذهب الإمامية، وكان يجعل التقية أصلاً من أصوله، فكان يعمل سراً وقلماً عمل جهراً، وكان يأذن لأنصاره أن يمدحوا العباسيين تقية، ومضى كثيرون منهم يمدحونهم طلباً لما في أيديهم من أموال، وهم يسرون لهم كرهاً وحنقاً، ومن هنا كنا كثيراً ما نقرأ عن شاعر أنه مدح هذا الخليفة أو ذاك ويقال إنه كان يتشيع. وهم أكثر من أن نسميهم أو نحصيهم. وملاحظة ثالثة هي أنه قيل شعر شيعي كثير في العصر، وهو موزع بين بعض آل البيت وبين أنصارهم ممن يشدون الشعر وينظمونه، ومن أهم الشعراء العلويين حينئذ محمد بن صالح العلوي الآنف ذكره والحماني وسنخصه هو الآخر بترجمة قصيرة، ومنهم محمد بن علي بن عبد الله أحد أحفاد العباس بن علي بن أبي طالب، وكان في أيام المتوكل، وهو يكثر من الافتخار بآبائه وبنسبه الطاهر إلى الرسول الكريم، ويردد في أشعاره نظرية بيته العلوي في الخلافة وأن الرسول عليه السلام أوصى

---

[1] أغاني (ساسي) ١٤١/١٩.

بها إلى جده على حين نزل بغدير خم إذ قال له: "أنت منى بمنزلة هرون من موسى" وإلى ذلك يشير بقوله:

وجدى وزير المصطفى وابن عمه — على شهاب الحرب في كل ملحم

وأول من صلى ووحد ربه — وأفضل زوار الحطيم وزمزم

وصاحب يوم الدوح إذ قام أحمد — فنادى برفع الصوت لا بتهمهم

جعلتك مني يا علي بمنزل — كهرون من موسى النجي المكلم

وما نصل إلى سنة ٢٥٠ في عصر المستعين حتى تثور ثائرة الشعراء الشيعيين، وذلك أنه كان قد أعلن الثورة في الكوفة يحيى بن عمر الطالبي، وكان قد تورع عن أخذ أموال الناس ظلماً وأمر بحقن الدماء، وكان ورعاً زاهداً ناسكاً، فتبعته ألوف، ونشب القتال بينه وبين جيوش محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد وجنوبي العراق. وتمزقت جموعه، وخر قتيلاً، وحمل رأسه إلى بغداد. وضج الناس لمقتله وصلب رأسه، ويروي أنه لما جلس محمد بن عبد الله بن طاهر للشعراء يستقبل تهانيهم بالفتح دخل عليه أبو هاشم الجعفري، وقال له: أيها الأمير إنك لتهنأ بقتل رجل لو كان رسول الله صلى الله عليه حياً لعزى به، فلم يجبه الأمير، فولى وجهه خارجاً، وهو يقول[١]:

إن وتراً يكون طالبه اللـ — ـه لوتر نجاحه بالحرى

ونصب له الشيعة مأتماً كبيراً ناح فيه الشعراء وبكوا طويلاً، ومرت بنا في غير هذا الموضع مرثية ابن الرومي له، وهي صرخة من أعماقه تناول فيها العباسيين تناولاً ذميماً، واصفاً لهم بالظلم والطغيان هم وولاتهم، ومنذراً برجوع الحق إلى نصابه، بل متوعداً بجيش يأخذ بثأر يحيى ويدمر خصومه تدميراً.وكثر رثاؤه وندبه والنواح عليه بمثل قول أحمد بن أبي طاهر[٢]:

سلام على الإسلام فهو مودع — إذا ما مضى آل النبي فودعوا

فقدنا العلا والمدد عند افتقادهم — وأضحت عروش المكرمات تضعضع

لقد أقفرت دار النبي محمد — من الدين والإسلام فالدار بلقع

وقتل آل المصطفى في خلالها — وبدد شمل منهم ليس يجمع

---

[١] الطبري ٩/٢٧٠ والمروج ٤/٦٤.

[٢] مروج الذهب ٤/٦٤.

وسرعان ما يثور في نفس السنة بطبرستان الحسن بن زيد العلوي سليل الحسن بن علي بن أبي طالب، ويغلب عليها وعلى جرجان بعد حروب ومعارك كثيرة، ويظل مسيطراً عليها إلى أن يلبي نداء ربه لسنة ٢٧٠ وطبيعي أن يصبح مقصداً للشعراء، وأن يتغنى غير شاعر باسمه في المناسبات المختلفة، ونجد شاعراً من جرجان يسمى محمد بن إبراهيم يهنئه حين افتصد بقوله[١]:

قد رأينا مجالساً عطرات ... هيئت عندنا لفصد الإمام

إنما غيب الطبيب شبا المبـ ... ـضع عندي في مهجة الإسلام

سرت الأرض حين صب عليها ... دم خير الورى وأعلى الأنام

والنزعة الشيعية واضحة في الأبيات. وكان من الشعراء حينئذ من يستر تشيعه ماكراً برجال الدولة العباسية، إذ ينزل عليهم بسياط هجائه، لا لشيء إلا لأنهم يخاصمون آل علي، وربما اتخذ لذلك وسائل ماكرة، وممن اشتهر بهذه الطريقة أبو نعامة الدقيقي الكوفي، إذ قال الرواة إنه استنفد شعره في هجاء رجال الجيش العباسي، يرميهم بالأبنة، وصنع في قوادهم ورؤساء الدولة قصيدة مزدوجة سماها السنية، رماهم فيها بالقبائح الشنيعة. وما زال هذا شأنه، حتى تصادف أن دخل بغداد مفلح القائد التركي في طريقه إلى حرب صاحب الزنج، فدله عليه قوم من أهل بغداد، وقالوا إنه يتشيع وشهدوا عليه بالرفض، فضربه مفلح بالسياط حتى تلفت نفسه ومات لسنة ٢٦٠.

وكان قد خلف الحسن بن زيد على طبرستان حين توفى أخوه محمد، واستقام أمره فيها وعظم شأنه، فدخل ديار الديلم ودان تله، حتى إذا كانت سنة ٢٨٧ جهز جيوشاً كثيرة من الديلم وغيرهم لغزو جرجان، فلقيته جيوش إسماعيل بن أحمد الساماني صاحب خراسان من قبل العباسيين، ودارت عليه الدوائر ، وأثخن بالجروح، وتوفى، فدفن بباب جرجان، يقول المسعودي: وقبره هناك معظم على اليوم. ويبدو أنه كانت له بطانة كبيرة من الشعراء تنصر دعوته من مثل محمد بن حبيب الضبي القائل فيه[٢]:

إن ابن زيد كل يوم زائد ... علا علوا لا يساويه أحد

لو صال بالطود إذن أذله ... أو زجر البحر إذن صار زبد

---

[١] معجم الشعراء ص ٣٩٧.

[٢] معجم الشعراء ص ٣٩٧.

وأهم من هذا الشاعر شاعر يسمى أبا المقاتل نصر بن نصير الحلواني، نراه يغلو في مديحه، حتى لنصبح وكأننا بإزاء بعض غلاة الشيعة وما يحيطون به أئمتهم من هالة قدسية ترفعهم عن البشر درجات، وفيها يقول[١]:

لا تقل بشرى وقل لي بشريان	غرة الداعي ويوم المهرجان
ابن زيد مالك رق الزمان	بالعطايا والمنايا والأماني
خلقت كفاه موتاً وحياة	وحوت أخلاقه كنه الجنان
مختف فكرته في كل شيء	فهو في كل محل ومكان
يتناءى لفظنا عنه ولكن	هو بالأوصاف في الأذهان دان
كافر بالله جهراً والمثاني	كل من قال: له في الخلق ثان

ويبدو أن محمد بن زيد كان قد خطا في الدعوة الشيعية خطوات فسمى نفسه الداعي، وأخذ يوحي إلى الشعراء أن يسبغوا عليه صفات إلهية، فهو ظاهر في العيان، وهو مختف في كل مكان، وهو لا تحده الألفاظ، وإنما تقربه الأوصاف وليس له ند ولا شبيه، وكافر بالله والمثاني السبع أو القرآن من يقول له في الخلق ثان. ونحن نعرض ثلاثة من شعراء الشيعة منهم اثنان علويان والثالث من الأنصار المخلصين، وهم محمد بن صالح العلوي والحماني والمفجع البصري.

محمد بن صالح العلوي[٢]

من فتيان البيت العلوي وشجعانه وشعرائه، امتعض لبيته حين أنزل به المتوكل ما أنزل من سخطه وغضبه، وما كان من هدمه لقبر الحسين ومنعه الناس من زيارة قبره وقبر أبيه علي بالنجف. وكان موطنه سويقة في بادية الحجاز كان ينزلها مع أسرته من الحسنيين أحفاد الحسن بن علي بن أبي طالب، فعزم على الخروج وأخذ يجمع الناس لذلك، وتصادف أن حج بالناس في نفس السنة أبو الساج أحد قواد المتوكل الترك فسمع بنيته وأنه لبس البياض مع كثير من أنصاره، وكأن البياض كان حينئذ يتخذ شعاراً للعلويين ضد العباسيين المسودين أو الذين يتخذون السواد شعاراً لهم. وفاجأه هو وأنصاره أبو الساج فأخذهم وقيدهم وقتل نفراً منهم وأخرب سويقة وحرب منازلهم بها واستأصل كثيراً من نخلها وأثر فيها آثاراً سيئة، وحمل محمد بن صالح فيمن

---

[١] مروج الذهب ٤/٢٥١.

[٢] أنظر في محمد بن صالح الأغاني (طبع دار الكتب المصرية) ١٦/٣٦١ ومقاتل الطالبيين للأصبهاني (طبعة الحلبي) ص٦٠٠ ومعجم الشعراء ص ٣٨٠.

حمل منهم إلى سامراء، فحبس ثلاث سنوات، ثم عفا عنه المتوكل بسبب شعره وبفضل وساطة وزيره الفتح بن خاقان له، وذلك أنه نظم أبياتاً جيدة يعزي فيها نفسه عن حبسه، ويتجمل بالصبر قائلاً:

طرب الفؤاد وعاودت أحزانه ... وتشعبت شعباً به أشجانه

وبدا له من بعد ما اندمل الهوى ... برق تألق موهناً لمعانه

فدنا لينظر كيف لاح فلم يطق ... نظراً إليه ورده سجانه

فالنار ما اشتملت عليه ضاوعه ... والماء ما سحت به أجفانه

ثم استعاذ من القبيح ورده ... نحو العزاء عن الصبا إيقانه

وبدا له أن الذي قد ناله ... ما كان قدره له ديانه

والشعر جزل مصقول، والشاعر يبث في أوائله حنيناً لأيامه الماضية وكأنها عهود هوى وحب سقطت منه، وينظر إلى البرق متطلعاً لليوم الذي ترد إليه في حريته، فيعنف به السجان، ويحس كأن نار الوجد اندلعت في ضلوعه ظمئاً إلى أهله وموطنه. وتسح الدموع وتنهل لا تجف، ويرده إيمانه ويقينه، فيستلم للقضاء محزون الفؤاد شجيه. وتشيع الأبيات وتصل إلى سمع الفتح بن خاقان ومغنى المتوكل بنان، ويصنع بنان فيها صوتاً يلحنه أمام المتوكل فيستحسن الشعر واللحن ويسأل عن قائله، فيذكر له، ويكلمه الفتح في أمره وما يزال يرقق قلبه حتى يعفو عنه، غير أنه يشترط أن يظل عند الفتح وفي يده وألا يبرح سامراء حتى لا تحدثه نفسه بالعودة إلى الثورة. وترد إليه حريته فيمدح المتوكل ويغدق عليه من صلاته، كما يمدح المنتصر. ونراه يبالغ في التقية من المتوكل فلا يكتفي بمديح له عام، بل يسوق الدليل والبرهان على أن العباسيين أحق من العلويين بالخلافة، يقول:

يابن الخلائف والذين بهديهم ... ظهر الوفاء وبان غدر الغادر

وابن الذين حووا تراث محمد ... دون الأقارب بالنصيب الوافر

نطق الكتاب لكم بذاك مصدقاً ... ومضت به سنن النبي الطاهر

وهو يشير في البيت الأخير إلى قوله تعالى ذكره في سورة الأنفال: (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله) يريد أن العباسيين مقدمون في وراثة الخلافة على أبناء بنت الرسول عليه السلام، لأن العم يتقدمهم في الميراث كما تنص على ذلك شريعة الإسلام في القرآن الكريم، وكما مضت بذلك السنة النبوية الطاهرة. ولم يتورط فيما كان يتورط فيه شعراء بغداد من التعلق

بالجواري والإماء، فقد كان يكلف بزوجه وحدها، وكانت تحتل قلبه بجمالها، ويشغف بها شغفاً شديداً وفيها يقول:

لعمر حمدونة إني بها لمغرم القلب طويل السقام

مجاوز للقدر في حبها مباين فيها لأهل الملام

جشمني ذلك وجدي بها وفضلها بين النساء الوسام

زينها الله وما شأنها وأعطيت منيتها من تمام

وكان جميل المحضر حلو الحديث رقيق الشمائل، فانعقدت الصداقة بينه وبين نفر من الأدباء، فق مقدمتهم سعيد بن حميد أحمد كتاب الديوان المجيدين وممن كانوا يحسنون صنع الشعر بجانب إحسانهم لفن الكتابة، وكان محمد بن صالح يمنحه وداً حقيقياً وفيه يقول:

أصاحب من صاحبت ثمت أنثنى إليك أبا عثمان عطشان صاديا

وكنا إذا جئناك لم نبغ مشرباً سواك وروينا العظام الصواديا

وتصويره لمودته له وأن عطشه للقائه يبلغ منه عظامه تصوير جيد، وكان إبراهيم ابن المدبر زميل سعيد في الدواوين يوليه فضلاً كثيراً، وانعقدت بينهما صداقة وثيقة حتى كان يمضيان كثيراً من الليالي والأيام معاً لا يفترقان، وله رائية طويلة في مديحه، وفيها يقول:

أخ واساك في كلب الليالي وقد خذل الأقارب والنصير

فإن تشكر فقد أولى جميلاً وإن تكفر فإنك للكفور

وله مقطوعة يصور فيها جواري يندبن ويلطمن عند قبر لبعض ولد المتوكل، وهو فيها يتحدث عن فتور عيونهن وجمالها، ويخال كأنما سينفخ هذا الجمال الفاتن في العظام الهامدان، فتعود مرة ثانية على الحياة الدنيا، يقول:

رايت بسامرا صبيحة جمعة عيوناً يروق النظارين فتورها

تزور العظام الباليات لدى الثرى تجاوز عن تلك العظام غفورها

فلولا قضاء الله أن تعمر الثرى إلى أن ينادي يوم ينفخ صورها

لقلت عساها أن تعيش وأنها ستنشر من جرا عيون تزورها

ولعل في كل ما قدمنا ما يصور شاعرية محمد بن صالح العلوي الفذة، ويظله عصر المنتصر فيصيبه فيه جدري ويلبي نداء ربه، ويرثيه غير صديق باكياً خصاله الحميدة.

الحماني العلوي[١]

سمى الحماني نسبة إلى حي بالكوفة نشأ وعاش فيه؛ وهو علي بن محمد بن جعفر العلوي، خرج أبوه محمد الملقب بالديباجة في المدينة لأوائل عصر المأمون قبل تحوله من خراسان إلى بغداد، غير أن ثورته ضد العباسيين لم تنجح، وحمل إلى بغداد، ونفي منها إلى خراسان، فنزل بساحة المأمون هناك، وسرعان ما وافاه الموت ويقال إنه لما حمل الرجال نعشه دخل المأمون بين عموديه، فاشترك في حمله حتى نزوله في لحده، وكان مما قال: هذه رحم مجفوة منذ مائتي سنة.

وانتقلت أسرة الديباجة بعده إلى الكوفة، وبها نشأ ابنه علي، وعنيت الأم والأسرة بتثقيفه، فلم يحسن صنع الشعر فحسب، بل أحسن صنوفاً من الآداب وعلوم الشريعة، مما جعل العلويين في تلك البلدة يختارونه نقيبهم ومدرسهم ولسانهم، كما يقول المسعودي. ونمى إلى المتوكل أن في داره سلاحاً وأن الشيعة يجتمعون عنده، وقيعة فيه من بعض حساده، فوجه إليه جنداً اقتحموا عليه داره فجأة، فوجوده يتعبد ربه في غرفة مغلقة مرتدياً ثوباً بسيطاً من الصوف، ولا بساط في البيت إلا الرمل والحصى، وهو يتلو القرآن مترنماً بآية. فحملوه إلى المتوكل ووصفوا له ما يعيش فيه من شظف، فرق له، وسأله: ما يقول آل بيتك في العباس بن عبد المطلب (جد العباسيين)، فأجابه بقوله: وما يقول آل بيتي يا أمير المؤمنين في رجل افترض الله طاعة نبيه على خلقه وافترض طاعته على نبيه؟ ولان قلب المتوكل له فأمر بإعطائه أربعة آلاف دينار، وقيل بل مائة ألف درهم. ولم يرد الحماني في إجابته ظاهرها من طاعة العباس على نبيه كما يتضح في الشطر الثاني من الجواب، وإنما أراد طاعة الله على نبيه.

ومر بنا أن الشعراء أكثروا في عصر المتوكل من ذم العلويين إرضاء له، وكان من أكثرهم قدحاً في علي وآله علي بن الهم وكان ينتسب إلى بني سامه بن لؤي القرشيين، وافتخر مراراً بهذا النسب في أشعاره، وكان طبيعياً أن لا يسكت الحماني على هذا القدح، وخاصة أنه تتداوله الألسنة وتعمل بغداد عل نشره، فطعن على بن الجهم طعنة بطعنات، ولكن لا بالقدح في خلقه وعرض على عادة الشعراء في عصره، وإنما بالقدح في نسبه إلى سامة، فهو ليس من أحافده، وبالتالي ليس قرشياً ولا فيه من القرشية شيء يقول:

وسامة منا فأما بنوه ... فأمرهم عندنا مظلم

---

[١] أنظر في الحماني وأشعاره مروج الذهب ٢٩/٤ ، ٦٥ ومقاتل الطالبيين ص ٦٦٢ وكتاب الزهرة نشر نيكل طبع بيروت سنة ١٩٣٢ (أنظر الفهرس) وكتاب الديارات ص ٢٣٧ والمختار من شعر بشار للخالدين ص ١٦ ، ٢٥١ وديوان المعاني ١٠٩/١ ، ٦٥٨/٢.

أناس أتونا بأنسابهم خرافة مضطجع يحلم

وعرف علي بن الجهم له فضله وحقه وحق أسرته العلوية، فلم ينبس ببنت شفة واجداً عليه ولا هاجياً، وإنما اكتفى بأبيات ينوه فيها بفضله، ويعترف له فيها بحقه وحقوق بيته.

وقد حزن الحماني حزناً شديداً على ابن عمه يحيى بن عمر حين خرج لعهد المستعين داعياً لنفسه بالخلافة، وقتل دون أمنيته، وحدث أن الحسن بن إسماعيل قائد الجيش الذي نكل به دخل الكوفة عقب انتصاره مهدداً متوعداً، ولم يمض الحماني للسلام عليه، وكان الوحيد الذي تخلف من العلويين عن لقائهن ولاحظ ذلك الحسن بن إسماعيل، فبعث إليه بجماعة أحضروه حتى إذا دخل مجلسه أظهر شجاعة وجلداً وأنه لا يخشى سطوة القائد، ولم يلبث أن أنشده:

قتلت أعز من ركب المطايا وجئتك أستلينك في الكلام

وعز على أن ألقاك إلا وفيما بيننا حد الحسام

وهو موقف كريم إذ لم يتملق القائد كما كان يظن ولا داراه، بل جاهره بما في نفسه دون خوف أو وجل. وله مراث كثيرة في يحيى، يبكيه فيها ويندبه، ويصور أنه مات موتاً كريماً، موت البطل الشجاع الذي لا يرهب الموت بل يلقاه في قوة وصلابة مهما ادلهمت الخطوب من حوله، ومهما أظلمت الدنيا في عينيه، حتى لتهول بطولته خصومه، وحتى ليطلبون لقبره السقيا وله الرحمة، يقول:

فإن يك يحيى أدرك الحتف يومه فما مات حتى مات وهو كريم

وما مات حتى قال طلاب روحه سقى الله يحيى إنه لصميم

ويصور في مراثيه له مأساة البيت العلوي وأن أفراده دائماً بين قتيل وجريح. وللحماني مراث كثيرة- بجانب مراثيه لابن عمه يحيى- في أهله، وفي أخيه لمه إسماعيل وهو لا يرثى فيه الأخ والرحم القريبة فقط، بل أيضاً يرثى الصديق شقيق النفس والروح، ويتفجع عليه تفجعاً شديداً بمثل قوله:

هذا ابن أمي عديل الروح في جسدي شق الزمان به قلبي إلي كبدي

من لي مثلك يا روح الحياة ويا يمنى يدي التي شلت من العضد

قد ذقت أنواع ثكل أنت أبلغها على القلوب وأخناها على الجلد

فاليوم لم يبق شيء أستريح له إلا تفتت أحشائي من الكمد

قل للردي لا يغادر بعده أحداً وللمنية من أحببت فاعتمدي

إن السرور تقضي بعد فرقته وآذن العيش بالتكدير والنكد

والمرثية مؤثرة وهي سيل من الدموع والزفرات والأنين الموجع. وللحماني غزليات كثيرة تتداولها بعض كتب الأدب وهي تنم على شعور رقيق وخيال خصب من مثل قوله:

متى أرتجي يوماً شفاء من الضنا إذا كان جانيه على طبيبي

وله فخر يتحدث فيه عن آبائه. ويصور سمو نفسه وارتفاعها عن النقائص، كما يصور كبر همته وأنها ملء قلبه بل أكبر من قلبه، يقول:

قلبي نظير الجبل الصعب وهمتي أكبر من قلبي

فاستخر الله وخذ مرهفاً وافتك بأهل الشرق والغرب

ولا تمت إن حضرت ميتة حتى تميت السيف بالضرب

وهو ممن أكثروا من ذم الشيب وكراهته، وصور ذلك في أشعار كثيرة كأن نراه يكره الشيب ويكره مفارقته لأنها تعني فقده للحياة، وكأنه- على بغضه له- يود أن لا يفارقه، يقول:

بكى للشيب ثم بكى عليه فكان أعز فقداً من شباب

فقل للشيب لا تبرح حميداً إذا نادى شبابك بالذهاب

وبجانب ذمه للشيب يأسى كثيراً على الشباب وأيام لهوه ومتاعه بالنظر إلى الغانيات فقد ضل ذلك منه، أضله الشيب،وهل من غانية تنظر إلى شيخ فان، يقول:

لقد كنت تملك ألحاظهن فصرن يعرنك لحظاً معارا

وأصبحن أعقبن بعد الوداد بعاداً وبعد السكون النفارا

وله وصف كثير في سرى الليل وفي اعتساف الفلوات بالإبل والخيل نجد منه مقتطفات في كتب الشعر، ومن طريف نعته لطول الليل وسكونه وجثومه على الكون دون أي حركة قوله:

كأن نجوم الليل سارة نهارها ووافت عشاء وهي أنضاء أسفار

فخيمن حتى تستريح ركابها فلا فلك جار ولا كوكب سار

وكان يكثر من ذكر المنازل والديار، وله قصيدة بديعة يتحدث فيها عن المنازل القريبة من الكوفة مثل آثار قصرى الخورنق والسدير، وكانا من قصور الحيرة، وديارات الأساقف المطلة على نهر الغدير هناك وما حول هذه المنازل من رياض نضرة ترف فيها الأنوار والأزهار، ومن قوله في تلك القصيدة:

كم وقفة لك بالخور نق لا توازي بالمواقف
بين الغدير إلى السدير إلى ديارات الإٍساقف
دمن كأن رياضها يكسين أعلام المطارف
تلقي أوائلها أوا خرها بألوان الزخارف

وواضح من هذه الأشعار التي وقفنا عندها للحماني أنه كان شاعراً مجيداً، فعنده كثير من الخواطر والأخيلة البارعة، وبالغ بعض الشيعة المتحمسين له فقالوا إنه كان أشعر شعراء قرنه. وقد توفى سنة ٢٦٠ للهجرة.

المفجع البصري(١)

هو أبو عبيد الله محمد بن أحمد الكاتب، عالم أديب، وتدل كلمة الثعالبي في اليتيمة أنه حين توفى ابن دريد العالم اللغوي الإخباري المشهور سنة ٣٢١ قام مقامه في التأليف والإملاء، على أنه كان واسع الرواية وصاحب معرفة دقيقة باللغة والأخبار، ويشهد لذلك أنه ترك مصنفات مختلفة مثل كتاب سماه كتاب الترجمان في الشعر ومعانيه. وفي كتاب الفهرست لابن النديم بيان كامل بأسماء مصنفاته. ويلفت النظر أنه شيعي وليس من أهل الكوفة بل من أهل البصرة، ومعروف أن الكوفة كانت تى القرن الثالث الهجري مركز التشيع وداره. بينما كانت البصرة بعيدة عن التشيع وأهله(٢)، وكأنما امتد تيار التشيع مع نهاية القرن الثالث وأوائل الرابع إلى البصرة، وأخذت تتحول إلى مركز من مراكزه.

ويبدو أن المفجع كان شيعياً إمامياً، فقد شاع مذهب الإمامية في العراق من قديم، ويقولون إن لقبه المفجع لزمه ببيت قاله، وأكبر الظن أنه لقب بهذا اللقب إشارة إلى تفجعه الكثير على قتلى العلويين، وكان– على ما يظهر– يكثر من مديح الهاشميين، وخاصة أبا الحسن محمد بن عبد الوهاب الزينبي الهاشمي البصري وفيه يقول:

المزينبي– إلى جلالة قدره – خلق كطعم الماء غير مزند

(١) أنظر في المفجع وأخباره وأشعاره اليتيمة للثعالبي (طبعة محيي الدين عبد الحميد) ٣٦٣/٢ والفهرست ص ١٢٩ ومعجم الأدباء لياقوت ١٩٠/١٧ ومعجم الشعراء ص ٣٨٠ والوافي بالوفيات (طبع استانبول) ١٢٩/١.

(٢) ثلاث رسائل للجاحظ (طبعة فان فلوتن) ص٩.

[1]وشهامة تقص الليوث إذا سطا ... وندى يفرق كل بحر مزبد()

يحتل بيتاً في ذؤابة هاشم ... طالت دعائمه محل الفرقد

بضياء سنته المكارم تقتدي ... وبجود راحته السحائب تهتدي

وله قصيدة طويلة يمدح فيها عليا– رضي الله عنه– سماها "ذات الأشباه" إشارة إلى أثر مسند إلى أبي هريرة ذكر فيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال وهو في محفل من أصحابه: "إن تنظروا إلى آدم في علمه ونوح في همه وإبراهيم في خلقه وموسى في مناجاته وعيسى في سنه ومحمد في هديه وحلمه فانظروا إلى هذا المقبل. فتطاول الناس فإذا هو علي بن أبي طالب". وعلى هدى هذا الأثر نظم المفجع قصيدته مصوراً فيها مناقب على وهي تطرد على هذا النمط:

أيها اللائمي لحبي عليا ... قم ذميماً إلى الجحيم خزيا

[2]أشبه الأنبياء كهلا وزولا ... وفطيماً وراضعاً وغذيا()

كان في علمه كآدم إذ عل ... م شرح الأسماء والمكنيا

[3]وكنوخ نجى من الهلك من سـ ... ـير في الفلك إذ علا الجوديا()

وجفا في رضا الإله أباه ... واجتواه وعده أجنبياً

[4]كاعتزال الخليل آزر في اللـ ... ـه وهجرانه أباه مليا()

ولو أن الوصي حاول مس النـ ... ـجم بالكف لم يجده قصياً

وطبيعي أن تفقد القصيدة العذوبة لأنها إلى الشعر التعليمي أقرب منها إلى الشعر الغنائي وافر النغم والألحان. وليس معنى ذلك أن شعره جميعه يجري على هذا المنوال فالأبيات السابقة في مديح الزيني أسلوبها مستو وليس فيه استواء فقط، بل أيضاً فيه جزالة ورصانة. ويقول الثعالبي إن شعره كثير الحلاوة يكاد يقطر منه ماء الظرف من مثل قوله:

زفرات تعتادني عند ذكرا ... ك وذكراك ما تريم فؤادي

وسروري قد غاب عني مذغبـ ... ـت فهل كنتما على ميعاد

---

(١) تقص: تدق وتحطم .

(٢) الزول: الفتى .

(٣) الجودي: جبل بشمالي العراق .

(٤) آزر: أبو إبراهيم .

ليس لي مفزع سوى عبرات　　من جفون مكحولة بالسهاد

وبحسبي من المصائب أنى　　في بلاد وأنتم في بلاد

وكان مثل أستاذه ابن دريد لا يجد بأساً في أن يقبل أحياناً على الشراب، إذا صح ما روي عنه من احتساء الخمر، ونراه يصف مجلساً من جالسها في ليلة من ليالي الأنس بها، يقول:

أداروها والليل اعتكار　　فخلت الليل فاجأه النهار

فقلت لصاحبي والليل داج　　ألاح الصبح أم بدت العقار

فقال: هي العقار تداولوها　　مشعشعة يطير لها شرار

ولولا أنني أمتاح منها　　حلفت بأنها في الكأس نار

وبين أشعاره مقطوعات في بعض الغلمان، ومر بنا ما قلناه من أن أكثر ما كان ينظمه الشعراء فيهم إنما كانوا ينظمونه دعابة وفكاهة على مجالس الخمر بقصد التندير والضحك، ولذلك كان ينبغي ألا نصنع صنيع المستشرقين في تضخيمهم لهذه السوءة سواء عند المفجع البصري أو عند غيره. ورآه "متز" ينظم قصيدة في الجامع الكبير بالبصرة ومن فيه من الغلمان قائلاً:

ألا يا جامع البصر　　ة لا خربك الله

وسقى صحنك المزن　　من الغيث فرواه

فكم ظبي من الإنس　　مليح فيك مرعاه

نصبنا الفخ بالعلم　　له فيك فصدناه

وكم من طالب للشعـ　　ـر بالشعر طلبناه

فظن أنه وقع على وصمة كبرى، وذهب يقول إن الشاعر يحكي كيف كان يغوي الصبيان في الجامع المذكور ويستنزل العاصي الصعب منهم[1]. والدليل على أنه لم يكن خالص النية في حكمه أنه أنشد القصيدة وأسقط منها هذين البيتين:

ألا يا طالب الأمر　　دكذب ما ذكرناه

فلا يغررك ما قلنا　　فما بالجد قلناه

---

[1] أنظر الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١٣١/٢.

فالمفجع إنما قال ما قال من هذه القصيدة كذباً وبهتاناً وعبثاً ودعابة، فكان يحسن بمتز أن لا يسوقها في مجال الحديث عن التولع بالغلمان ونصب الشباك لهم وأين؟ في المساجد الطاهرة، فالمفجع إنما أراد إلى أن يدفع سامعيه إلى الفكاهة والضحك العريض. ولم يطل به المقام في مكان أستاذه ابن دريد يملي ويحاضر الطلاب، فما هي إلا ست سنوات بعد وفاة ابن دريد حتى لبي نداء ربه سنة ٣٢٧ للهجرة.

٣

شعرات الثورات السياسية

لم تكن ثورات الشيعة بزعامة العلويين وحدها هي التي أقضت مضاجع الخلفاء في هذا العصر، فقد اشتعلت بجانبها ثورات أخرى، كان بعضها يزيف لنفسه شعاراً علوياً حتى يجمع العامة في صفوفه وتحت لوائه. وكان من زعماء هذه الثورات من ينظم الشعر، فهو ثائر من جهة، وهو شاعر من جهة ثانية. ويهمنا الوقوف على هؤلاء الشعراء الثوار ومن كان يعينهم أحياناً بأشعاره من أنصاره. ونلاحظ أن هؤلاء الشعراء من الأنصار لم تهتم بهم كتب التاريخ، فهي دائماً تسوق ما قيل في انتصارات العباسيين على الثوار ولا تعني أي عناية بما قاله أصحاب هؤلاء الثوار في قليل ولا كثير.

ومن أوائل من ثاروا في العصر محمد بن البعيث لعهد المتوكل سنة ٢٣٤ وكان يحسن الشعر، وسنعرض له في موضع آخر. وما نصل إلى رمضان لسنة ٢٥٥ للهجرة حتى يشعل فارسي ثورة الزنج بالبصرة متزعماً لها،وفصلنا في الفصل الأول القول في هذه الثورة وكيف دوخت الدولة العباسية وعرضتها لكارثة عظيمة، إذ استطاع أن يستثير الزنج ويجعلهم يستشعرون سخطاً هائلاً على كبار الملاك الإقطاعيين الذين كانوا يسخرونهم في كسح أرض البصرة وزرعها دون أي رحمة أو شفقة وبأجور زهيدة لا تكاد تحقق لهم غذاء ولا كساء. وتجمع حوله الزنج واستحالوا إلى جيش لجب اجتاح جنوبي العراق وكاد يجتاح العراق كله في بعض الأوقات لولا أن تجرد لهم ولزعيمهم الموفق ولي عهد الخليفة المعتمد، كما مر بنا في غير هذا الموضع، وكان بطلاً مغواراً لا يشق غباره، وكانت الجيوش توالت في حرب هذا الثأر وأصحابه، وكان يمزقها شر ممزق، حتى تولى قيادتها الموفق، فاستحالت الهزيمة نصراً، ولكن أي نصر؟ لقد كان نصراً بطيئاً، إذ كانت تقف بينه وبين الثوار مستنقعات البصرة، وظل يأخذها منهم قطعة قطعة.

ومن المحقق أن هذه الثورة أقدم ثورة عرفها العرب في المطالبة بالحرية ونقض الاسترقاق وتحقيق العدل الاجتماعي، ولكن زعيمها لم يمض بها في السعي إلى هذه الغايات كما كان يعد في أول ثورته، فقد استباح في حروبه استرقاق الأحرار، وكأنما ألغى رده الحرية على الزنج بفرضه الاسترقاق على غيرهم، فانعكست صورة الاسترقاق، ولكنها ظلت كما هي وظلت طبقات من الناس تسترق طبقات أخرى. وكان قد رأى إنجاحاً لثورته أن يشفي عليها مسحة دينية، كما مر بنا في الفصل الأول، فأشاع في لناس أن اسمه علي بن محمد وأنه من سلالة زيد بن علي

بن الحسين، حتى يؤمنوا بأنه صاحب حق شرعي في الخلافة وأن من حقه الثورة على العباسيين، بل من حقه عليهم أن يصروه ويؤازروه. وانضم إليه كثيرون من الأحرار وأعراب البوادي بجانب من انضموا إليه من الزنج وعبيد العراق،ولكن ثورته باءت- بعد أربعة عشر عاماً من المعارك العنيفة- بالإخفاق الذريع.

ولا نريد أن نقف عند هذه الثورة الآن وما كان من صاحبها الذي ظلت ثورته أربعة عشر عاماً أو تزيد، والذي كان يسرف في القتل وسفك الدماء، حتى قالوا إنه قتل في البصرة في يوم واحد من غاراته الكثيرة ثلاثمائة ألف، وإنه كان ينهب أصحابه الأموال ويحرق الدور والقصور. وكل ذلك لا نريد أن نقف عنده، ولا عند ما يقال من أنه كان دائماً يخطب في أنصاره[١]. إنما نريد أن نقف عند ما يبقى لنا من بعض أشعاره[٢]. يقول المرزباني: "تروي له أشعار كثيرة في البسالة والفتك"، ويذكر أن ابن دريد كان يؤكد أنها من نظمه وأنها قرئت عليه أمامه، فشهد بأنها له، ولم ينكرها،وكأن من معاصريه من كان يشك في أنه شاعر يحسن صنع الشعر ونظمه، مما جعل ابن دريد يؤدي الشهادة السالفة. وكان من قرية تسمى ورزنين بإيران، وكأنه تلقن فيها من الآداب العربية ما جعله يحسن الخطابة والشعر جميعاً، وله يخاطب بني العباس:

بنى عمنا لا توقدوا نار فتنة ... بطيء على مر الليالي خمودها

بنى عمنا إنا وأنتم أنامل ... تضمنها من راحتيها عقودها

بني عمنا وليتم الترك أمرنا ... بديئاً وأعقاباً ونحن شهودها

فأقسم لا ذقت القراح- وإن أذق ... فبلغة عيش- أو يبار عميدها[٣]

وهو يسوق كلامه إلى العباسيين كأنه حقاً ابن عمه علي بن أبي طالب أو حفيده، ويزعم أنهم يوقدون ضده نار فتنة، وكان ينبغي أن يستسلموا له فليسوا جميعاً إلا أنامل يد هاشمية واحدة. ويلومهم أن أسلموا قيادة الدولة للأتراك، ونه سيجاهدهم جهاداً مريراً. وكان يكثر من تصوير ما يجري في قصورهم من خمر ومجون ينبغي أن تبرأ منه قصور الخلافة وأن تكون قصور نسك وطهارة لا قصور إثم وعصيان، وفي ذلك يقول:

لهف نفسي على قصور ببغدا ... د وما قد حوته من كل عاص

---

[١] الطبري ٩/٤١٤ وما بعدها.

[٢] أنظر في أشعار صاحب الزنج معجم الشعراء للمرزباني ص ١٤٨ وذيل زهر الآداب ص ١٥٥ وما بعدها.

[٣] الماء القراح: البارد العذب . بلغة العيش: أقل ما يكفي . يبار: يهلك .

وخمور هناك تشرب جهراً ورجال على المعاصي حراص

لست بابن الفواطم الزهر إن لم أقحم الخيل بين تلك العراص

وهو يسجل على العباسيين انصرافهم عن حياة الدين والعبادة إلى حياة اللهو والمجون والعبث واقتراف الآثام، حتى يستثير الناس معه. وينسب نفسه إلى فاطمة الزهراء، بل إلى الفواطم الزهر، حتى يستهوى القلوب. ويعلن أنه سيجاهد العباسيين ويستمر في جهاده حتى تسقط بغداد. وظل ثابتاً في جهاده مخلصاً له في أحلك الظروف، حتى بعد أن فقد الأمل، فإنه لم يستسلم للموفق بعد أن استسلمت عامة أنصاره، ولا رضى الأمان حين عرضه عليه كما رضيه أكثر جنده والبقية الباقية منهم، بل ظل يقاتل حتى سفك دمه أمام منزله وهو ينشد:

عليك سلام الله يا خير منزل خرجنا وخلقناه غير ذميم

وتلقانا بعد ثورة صاحب الزنج ثورة بكر بن عبد العزيز بن أبي دلف في الكرج وكان شاعراً، وسنعرض له عما قريب. ونشبت ثورة القرامطة، وكان دعاتها يصلونها بالدعوة الإسماعيلية الشيعية، كما مر بنا في الفصل الأول. وكان غير ثائر من هؤلاء الدعاة يصل نفسه مباشرة بمحمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، مزيفاً لذلك سلسلة نسب كاذبة، على نحو ما صنع صاحب الزنج لنفسه نسباً يصله بزيد بن علي زين العابدين. وكان داعيتهم الأول قرمط مكون الفرقة قد التقى في سواد الكوفة بأحد دعاة الحركة الإسماعيلية، فانضم إليه، وأخذ في تنظيم حركته القرمطية واضعاً لها من المبادئ الاشتراكية العادلة ما استهوى به قلوب العامة، فتبعه خلق كثير أخذ يغير بهم على سواد الكوفة. وما نصل إلى سنة ٢٨٩ حتى نجده يختفي في ظروف غامضة، ويتولى زعامة حركته زكرويه الدنداني، ويرى– كما مر بنا– الدولة بالمرصاد له ولجماعته، فيرسل بأبنائه: يحيى والحسين ومحمد إلى قبيلة كلب ببادية السماوة بين العراق والشام، لعلهم يستجيبون إلى دعوتهم، ويتبعهم كثيرون، ويبايعون أكبرهم يحيى بن زكرويه الذي زعم لهم أنه من سلالة محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وتسمى لهم باسم أبي عبد الله علي بن محمد، وقيل بل تسمى باسم محمد، وتكهن لهم مدعياً أنه يوحى إليه، وكشف لهم عن عضد له ناقصة وزعم أنها آيته أو معجزته، كما زعم أن ناقته التي يركبها مأمورة وأنهم إذا ساروا وراءها في لقاء أي عدو جاءهم نصر الله والفتح المبين. ومضى بجموعه في سنة ٢٩٠ يهاجم المدن السورية ويعيث في الأرض فساداً. وكانت الشام حينئذ تتبع الدولة الطولونية، ولقيه أحد قوادها فتغلب عليه ومضى إلى الرقة يقتل ويسفك الدماء، ودحر جيشاً للعباسيين، وعاد يحاصر

دمشق، غير أنه قتل على أبوابها. وكان شاعراً، ترجم له المرزباني في معجمه[1].ونراه في بعض أشعاره على شاكلة صاحب الزنج ينسب نفسه إلى الفواطم من بني هاشم، يقول:

أنا ابن الفواطم من هاشم وخير سلالة ذا العالم

وطئت الشام برغم الأنام كوطء الحمام بني آدم

وهي نسبة كاذبة. ومن المؤكد أنه لم يكن يقصد بثورته نصرة العلويين ولا كان فيها متشيعاً لهم، إنما كان متشيعاً لنفسه يريد أن يصل إلى الملك والسلطان، ولذلك فصلناه مثل صاحب الزنج- على نحو ما مر بنا- عن العلويين وثوراتهم ودعواتهم السياسية، وله أبيات يذكر فيها النجوم والكواكب: المريخ والعيوق وسعد الذابحين ملوحاً للعامة التي تتبعه بأن علم التنجيم قد كشف له عن نصر عظيم يلقاه في الموصل ومدينة الرحبة التي بناها طوق بن مالك ومدينة الرافقة، بل إنه سيدمر بغداد تدميراً وينهب كل ما في قصورها من أموال يقول:

تقاربت النجوم وحان أمر قران قد دنا منه النذير

فمريخ الذبائح مستهل قوي ما لوقدته فتور

وعيوق الحروب له احمرار وسعد الذابحين له بدور

فبشر رحبتي طوق بيوم من الأيام ليس له نظير

ورافقة الضلالة ليس يغني إذا ما جئتها باب وسور

وبغداد فليس بها اعتياص على أمري وليس لها نكير

أصبحها فأتركها هشيماً وأحوى ما حوته بها القصور

ومن ثوار القرامطة الشعراء أبو طاهر الجنابي صاحب الأحساء والبحرين، وكان أبوه أبو سعيد من أنصار قرمط، وكلفه بنشر الدعوة في جنوبي إيران،وأخفقت مساعيه، وعاد إلى قرمط، فأرسله إلى البحرين والأحساء، وسرعان ما استجابت له قبيلة عبد القيس. ودخلت المنطقة في سلطانه منذ سنة ٢٨٦ للهجرة، وقتله غلام صقلبي في سنة ٣٠١ فخلفه ابنه أبو طاهر، وعظم أمره، إذ واقع عساكر الخليفة المقتدر مراراً كما مر بنا في الفصل الأول وفتك بغير جيش من جيوشه، واتسع ملكه في شرقي الجزيرة العربية، وكثر أتباعه وجنوده، ونال ما ل ينله قرمطي قبله. وكان يزعم أنه داعية عبيد الله المهدي الخليفة الفاطمي الإسماعيلي، وكان شأنه قد أخذ يعظم في إفريقية، ولم يكن يدعو له حقيقة، بل كان يتخذه ستاراً لخروجه على الخلافة العباسية.

---

[1] معجم الشعراء للمرزباني ص ١٥٣.

وكان كثيراً ما يغير على البصرة وينكل بأهلها، ويسفك دماءهم، ويحرق دورهم كما يحرق المساجد. وكثيراً ما كان يغير على قوافل الحجاج يفتك ويقتل وينهب، وجيوشه تغدو وتروح إلى عاصمته "هجر" محملة بالأموال، فكان طبيعياً أن يمتد به طمعه وطموحه إلى أن يستولي على بغداد، بل إلى أن يستولي على العالم الإسلامي كله وبلغ به تهويله على العامة أن كان يزعم لها أنه سيظل حياً حتى ينزل عيسى من السماء بأخرة، وفي ذلك كله يقول من قصيدة طويلة مهدداً متوعداً[١]:

فمن مبلغ أهل العراق رسالة ... بأني أنا المرهوب في البدو والحضر

فياويلهم من وقعة بعد وقعة ... يساقون سوق الشاء للذبح والبقر

سأصرف خيلي نحو مصر وبرقة ... على قيروان الترك والروم والخزر

أكيلهم بالسيف حتى أبيدهم ... فلا أبق منهم نسل أنثى ولا ذكر

أعمر حتى يأت عيسى بن مريم ... فيحمد آثاري وأرضى بما أمر

وعزم في سنة ٣١٥ على غزو بغداد، فخرج غليها في ألف فارس وخمسة آلاف راجل، فجهز المقتدر لحربه جيشاً بقيادة يوسف بن أبي الساج، والتقى الجيشان، ودارت الدوائر على ابن أبي الساج وجيشه، وأخذ أسيراً، وأسرع مؤنس بجيش كثيف في نحو أربعين ألفاً، وانضم إليه الحمدانيون وغيرهم من عرب العراق والموصل، والتقى بأبي طاهر وجيشه عند الأنبار، غير أن أبا طاهر انصرف راجعاً إلى بلاده، ولم يواقعه مؤنس مع ما اشتهر به من شدة بأسه، وكأنما خشي على نفسه مغبة الحرب، مما جعل أبا طاهر يرسل له بالأبيات التالية ساخراً منه سخرية شديدة[٢]:

قولوا لمؤنسكم بالراح كن أنساً ... واستتبع الراح سرناياً ومزماراً

وقد تمثلت عن شوق تقاذف بي ... بيتاً من الشعر للماضين قد سارا

نزوركم لم نؤاخذكم بجفوتكم ... إن الكريم إذا لم يستزر زارا

وهو يهزأ به وبشجاعته التي عرف بها، ويقول له إنك لست من أهل الحرب والبأس، وإنما أنت من أهل الكاس والطاس وآلات الطرب من السرناي وغير السرناي، ويستمر في هزؤه، فهو سيزوره ويزور بلاده للفتك به وبجنوده.

---

[١] النجوم الزاهرة ص ٣/٢٢٥.

[٢] تكملة تاريخ الطبري للهمداني ص٥٥.

وتطغى أبا طاهر الجنابي انتصاراته على جند الخلافة، ويغره بالله الغرور، ويشتهر عنه أنه لا يصلي ولا يصوم ولا يعرف حدود الله. وما يوافي شهر ذي الحجة في سنة ٣١٧ حتى ينقل غاراته على الحجاج من قوافلهم إلى البيت الحرام، وإذا السيوف تتوشهم وتسيل دماؤهم أنهاراً يوم التروية، وهم يهللون لربهم ويلبون، وهو وأنصاره ينحرون فيهم، كأنهم كباش أعدت للذبح، دون أي شفقة أو رحمة. ولم يكتفوا بمن ذبحوهم في فجاج مكة، فقد دخلوا المسجد الحرام ينحرون ويذبحون والناس يتعلقون باستار الكعبة وهم يمزقونها ويمزقون جلودهم بسيوفهم، ولا شفيع لهم ولا نصير من هذا الشيطان الرجيم. وبلغ من سفهه وخرقه أن أمر بطرح القتلى في بئر زمزم، واقتلع الحجر الأسود من موضعه، وأخذه معه إلى هجر وظل بها حتى سنة ٣٣٩ إذ أعاده القرامطة إلى مكة خوفاً من الخليفة المطيع وخشية من بأسه وباس البوهيين. وجرد أبو طاهر الكعبة من كل ما كان بها من تحف أهداها الخلفاء على مر السنين. وروي المؤرخون أنه كان في أثناء هذا العمل الوحشي الفظيع يترنم بأشعار له مبتهجاً؛ وكأنما كان يشفي غليل نفسه من الإسلام وصاحبه وأهله بما ارتكبه من هذه الخطايا الموبقات، وبما كان ينشده من هذه الأشعار التي يحاد بها الله ورسوله من مثل قوله[1]:

ولو كان هذا البيت بيتاً لربنا ... لصب علينا النار من فوقنا صباً

لأنا حججنا حجة جاهلية ... محللة لم تبق شرقاً ولا غرباً

ولكن رب العرش جل جلاله ... ولم يتخذ بيتاً ولم يتخذ حجباً

وكأنه بذلك يعلن كفره، صريحاً غير موار، بفريضة الحج إلى بيت الله، التي تعد ركناً أساسياً من أركان الإسلام. وبذلك يتضح أن أبا طاهر لم يكن ثائراً عنيفاً فحسب مثله مثل يحيى بن زكرويه وصاحب الزنج، بل إنه يتقدمها خطوات في الثورة الدامية والعنف والانفصال عن العلويين، إذ خلع الإسلام كله من عنقه ومضى يحارب أهله ويسيل دماءهم ويذبحهم ذبحاً حيث لا يحل صيد الحيوانات ولا الطيور، غير ما انتهكه من حرمات بيت الله المقدس انتهاكاً ليس له سابقة ولا لاحقة في التاريخ. ولعل من الخير أن نبسط القول قليلاً في شاعرين ثارا على الخلافة العباسية في القرن الثالث الهجري، وهما محمد بن البعيث وبكر بن عبد العزيز بن أبي دلف.

---

[1] تكملة تاريخ الطبري للهمداني ص٦٢.

محمد[١] بن البعيث

من فتيان بني أسد نزلت عشيرته في أذربيجان، واشتهر أبوه بأنه كان من الفتاك الصعاليك، واستطاع محمد أن يمتلك في تلك الديار قلعتين: قلعة تسمى شاهي وأخرى تسمى بكدر، وكانت شاهي أشد مناعة فكان يقيم فيها كثيراً. واشتهر أمره في عصر المعتصم وحروب بابك، فإنه كان يحاول أن يكون محايداً بين الطرفين المتخاصمين، فإذا نزلت سرايا أحدهما أضافها وأحسن الضيافة، وهو في أثناء ذلك يراوغ، وقد ينقل للجيش العباسي وقواده أخبار بابك، وقد ينقل إلى بابك أخبار الجيش العباسي. وكان هواه مع العباسيين، غير أن وقوفه متفرجاً دون أن يقحم نفسه في تلك الحروب وينصر العباسيين جعل اسحق بن إبراهيم المصعبي أحد قواد المعتصم يقبض عليه ويلقي به في غياهب السجون. ويتوسط له بعض القواد، فيفرج عنه، على ألا يبرح سامراء حتى إذا كانت سنة ٢٣٤ لعصر المتوكل هرب إلى دياره وحصونه فيها، واختار حصن مرند، فجمع فيه عدده وأسلحته وأنصاره وزادهم، ورم ما كان وهي من سورها، وكان في داخلها وخارجها بساتين، تدور من حولها أشجار كثيرة. ووجه إليه المتوكل بعض الجيوش فلم تستطع أن تصل إليه، ثم وجه إليه بغا الشرابي، فزحف إلى الحصن وقطع ما حوله من الشجر نحواً من مائة ألف شجرة، ونصب عليه المجانيق، ويئس ابن البعيث من مطاولة الحصار، ففر على وجهه وهو ينشد:

كما قد قضيت أموراً كان أهملها ... غيري وقد أخذ الإبلاس بالكظم[٢]

لا تعذليني فيما ليس ينفعني ... إليك عني جرى المقدار بالقلم

سأتلف المال في عسر وفي يسر ... إن الجواد الذي يعطي على العدم

وتبعه نفر من الجيش العباسي، فلحقوه، وهو راكب دابة متقلد سيفاً يريد أن يصير إلى نهر عليه رحي ليستخفى في الرحي، وأخذوه أسيراً ذليلاً، وانتهت الجند داره ودور أصحابه وبعض دور المدينة، ونادى مناد بالامتناع عن النهب. وأتى بابن البعيث إلى المتوكل، فأمر بضرب عنقه، فطرح على نطع، وجاء السيافون فلوحوا له بسيوفهم، وقال له المتوكل حانقاً غاضباً: ما دعا يا محمد إلى ما صنعت ؟ فأجابه: الشقوة وأنت الحبل الممدود بين الله وبين خلقه، وإن لي فيك لظنين أسبقهما إلى قلبي أولاهما بك، وهو العفو، ثم اندفع ينشده:

---

[١] أنظر في ثورة محمد بن البعيث وأخباره الطبري ٩/٢٥ ، ٢٧ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٧٠ ، ١٧١ ومروج الذهب ٤/٤١ ومعجم الشعراء ص ٣٨٥.

[٢] الكظم: مخرج النفس من الحلق . الإبلاس: انقطاع الحجة .

أبي الناس إلا أنك اليوم قاتلي إمام الهدى والصفح بالحر أجمل

وهل أنا إلا جبلة من خطيئة وعفوك من نور النبوة يجبل[١]

تضاءل ذنبي عند عفوك قلة فمن بعفو منك والعفو أفضل

فإنك خير السابقين إلى العلا ولا شك أن خير الفعالين تفعل

فقال المتوكل: أفعل خيرهما وأمن عليك، ارجع إلى منزلك، وخفف عنه الحكم من الإعدام إلى الحبس وظل فيه حتى وافاه الموت. وفي الطبري أنه كما كان ينظم بالعربية بعض أشعار له كان ينظم بالفارسية أشعاراً أخرى. وكان جواداً ممدحاً طالما قصده الشعراء بمدحهم، وأجزل لهم في عطائه، وممن ذكر منهم المرزباني في معجمه يحيى[٢] بن أحمد من أهل مدينة الرحبة في الموصل، وفيه يقول: "كان في كل ناحية محمد بن البعيث، ومدحه مدحاً كثيراً" منه قصيدة أولها:

لا زال محسوداً على أفعاله وحسوده في الناس غير محسد

شطراه بين معاقب أو غافر أو عائد متفضل أو مبتدي

شفعاً ووتراً كل ذاك فعاله كالدهر إلا أنه لا يعتدي

فالناس تحت لوائه من راغب أو راهب أو رائح أو مغتدي

وكان ابن البعيث يستخدم يحيى في الدعاية له، وهو يصوره فارساً رائحاً غادياً على أعدائه، والناس بين راهب من بطشه وراغب في كرمه الفياض، وتارة يعاقب أعداءه عقاباً أليماً، وتارة يعفو عفواً رحيماً، ويدعو له أن يظل محسوداً متسنماً لذروة المجد الرفيعة. ومن قوله فيه:

متى ألق من آل البعيث محمداً أحل رياضاً للعلا بمحمد

وتضحك أم البشر عني بنيله فأرجع محسوداً بنيل محسد

ويبدو أن ابن البعيث كان شخصية ممتازة، فهو جواد، وهو شجاع من أهل البأس والفتوة، وهو أديب يحسن العربية والفارسية. وبلغ من ثبات جأشه وجنانه أن أنشد المتوكل الأبيات السالفة وهو على النطع والسياف شاهر سيفه يريد أن ينقض عليه وأن يحز رأسه ويزهق روحه، وشرر الغضب يتطاير من عيني المتوكل وقد انتفخت أوداجه. وكأن ذلك كله لم يملأ نفسه خوفاً ولا هلعاً، فظل رابط الجأش مجتمع القلب، لا تخونه الكلمة في اللحظة الحرجة، بل لا يخونه

---

[١] الحبلة: الخلقة والطبيعة .

[٢] أنظر في ترجمته وأشعاره معجم الشعراء ص ٤٩١.

البيت الذي يستل الغضب من نفس المتوكل. وقد بلغ منه مبلغاً خطيراً، حتى أوشك أن يقضي عليه قضاء مبرماً. وهي قدرة نفسية كانت تمتزج بقدرته البيانية.

بكر[١] بن عبد العزيز بن أبي دلف

حفيد أبي دلف القاسم بن عيسى العجلي الشيباني البطل المغوار الذي أبلى بلاء عظيماً في حروب بابك لعهد المأمون والمعتصم، وكان هرون الرشيد ولاه- وهو حدث السن- أعمال الجبل في غيران، ولم يزل عليها إلى أن توفى سنة خمس وعشرين ومائتين. وكان أديباً شاعراً وله مقطوعات تتردد في كتب الأدب، وهو ممدوح أبي تمام وعلي بن جبلة الذي قال فيه:

إنما الدنيا أبو دلف ... بين باديه ومحتضره

فإذا ولي أبو دلف ... ولت الدنيا على أثره

وقد تولى إقليم الجبل ابنه عبد[٢] العزيز وكان شاعراً، وشجاعاً باسلاً، وعزله عنه المعتز وولى عليه موسى بن بغا، فثارت ثائرة عبد العزيز وفر إلى قلعة له ولعشيرته في الكرج بين همذان وأصفهان، وظل ينازل الدولة العباسية. ونراه في سنة ٢٥٤ يجبي همذان. ويخلف ابنه أحمد، فيتولى زعامة أسرته ويمد سلطانه على أصبهان ويتوفى سنة ٢٨٠ فيتنازع الرياسة بعده أخوه عمر وبكر، ويتم لعمر القيام بالأمر، ولا يرسل إليه الخليفة المعتضد بالولاية، حتى لا يثور بكر، غير أنه عاد فولى في سنة ٢٨٣ عيسى النوشري على أصبهان، وغضب بكر ومن كانوا ينضوون تحت لوائه من الأعراب، فولى وجهه معهم نحو الأهواز، وخرج في طلبه القائد التركي وصيف حتى بلغ حدود فارس. ولحقه، ولكنه لم يحاول أن يبادره بالحرب، وباتا كل واحد منهما قريب من صاحبه، وارتحل بكر ليلاً ولم يتبعه وصيف، وعاد بكر إلى أصبهان ورجع وصيف إلى بغداد. وكتب المعتضد إلى بدر غلامه المعروف باسم بدر المعتضدي يأمره بطلب بكر بن عبد العزيز وعربه.

وكان بكر شاعراً انحدر إليه الشعر من أبيه وجده، وله ديوان صغير نشر في دهلي باسم شعر بكر بن عبد العزيز وهو يتغنى في أشعاره بفتوته وفروسيته، وله ميمية طريفة نظمها حين سمع بأن المعتضد أمر بدراً غلامه أن يتعقبه، وفيها يتوعده ويتهدده بمثل قوله:

ألقى الأحبة بالعراق عصيهم ... وبقيت نصب حوادث الأيام

وتشعب العرب الذين تصدعوا ... فذببت عن أحسابهم بحسامي

---

[١] أنظر في بكر وأشعاره ديوانه وتاريخ الطبري ٤٧/١٠ ، ٥١ ، ٦٣.

[٢] أنظر في عبد العزيز وولايته على الجبل الطبري ٣٧٢/٩ ، ٣٧٣ ، ٣٨١.

فلأقرعن صفاة دهر نابهم قرعاً يهد رواسي الأعلام

ولأتركن الواردين حياضهم بقرارة لمواطئ الأقدام

يا بدر إنك لو شهدت مواقفي والموت يلحظ والصفاح دوامي

لذممت رأيك في إضاعة حرمتي ولضاق ذرعك في أطراح ذمامي

حركتني بعد السكون وإنما حركت من حصني جبال تهام

وواضح من حديثه في مطالع هذه الأبيات أنه يأسى للعرب في عصره، فقد تشعبوا وتفرقوا شيعاً وطرائق شتى، فعضهم الدهر بنابه وأصبحت حياضهم مباحة يردها الأعاجم وغير الأعاجم، وها هو وحده يقف للدفاع عن عرينهم، ولا معين له غير عزيمته الماضية وسيوفه القاطعة. وإنه ليتهدد الدهر أن ينزل به أشد النكال كما يتهدد من استباحوا حمى العرب والعروبة بالذل والهوان حتى ليصبحون موطئاً للأقدام، ويتحول إلى بدر المعتضدي واصفاً له مواقفه البطولية حين تسل السيوف وتسدد الرماح ويلتقم الموت الأبطال، حتى يستشعر الندم على تضييعه لذمامه وتحريكه للحرب المبيرة بعد سكونها. ويبدو أن بدراً رأى أن يكل أمره على غيره، فكلف عيسى النوشري بمهاجمته، وصدع لتكليفه، ولكنه لم ينجح سريعاً في مهمته، واضطر في بعض المواقف أن ينسحب بجيشه، فقال بكر يذكر فراره من بين يديه، ويتهدد بدراً صاحبه، من قصيدة طويلة:

ليس كالسيف مؤنس حين يعرو حادث معضل ويفدح أمر

أوقدوا الحرب بيننا فاصطلوها ثم حاصوا فأين منها المفر[1]

وبغوا شرنا فهذا أوان قد بدا شره ويتلوه شر

قد رأى النوشري لما التقينا من إذا أشرع الرماح يفر

جاء في قسطل لهام فصلنا صولة دونها الكماة تهر

غر بدراً حلمى وفضل أناتي واحتمالي وذاك مما يغر

على أنه سرعان ما اضطر إلى الفرار أمام جيوش الخلافة سنة ٢٨٤ إذ التقى به النوشري في حدود أصفهان، فقتل رجاله واستباح عسكره. وأفلت في نفر يسير، وغادر إقليم الجبل متجهاً إلى محمد بن زيد العلوي صاحب طبرستان، فأكرم وفادته عليه، وقربه منه، وولاه على إقليم رويان، غير أنه مات مسموماً في طريقه إليها لسنة ٢٨٥.

---

[1] حاصوا: حادوا .

٤

شعراء الوزراء والولاة والقواد

لا نبالغ إذا قلنا إن جميع وزراء العصر وأكثر ولاته وقواده داروا على ألسنة الشعراء يمدحونهم طلباً للنوال، غذ كانت بأيديهم أموال الدولة، وكانوا ينثرونها نثراً على الدعاية لهم، ولم يكن للدعاية حينئذ لسان سوى الشعر، فالوزير وكذلك الوالي والقائد حين يطريه شاعر ويثنى عليه يطير اسمه في الناس، ولذلك كان كثيرون يجمعون الشعراء من حولهم، لكي يعددوا مناقبهم، ويصوروا كفاءتهم وأنهم من الصفوة المختارة للأمة. وكان من بينهم شعراء وأدباء يقدرون الشعر وأصحابه، ويرفعون منزلتهم عالية. وكان في مقدمتهم لعصر المتوكل وزيره الفتح بن خاقان وكان كثيرون يكادون يقصرون أنفسهم على مديحه وما يصلهم من نواله[١]، وهو من ممدوحي البحتري كما مر بنا في غير هذا الموضع، وكان شاعراً مرهف الذوق، وله البيت المشهور[٢]:

ليس يستحسن في شرع الهوى عاشق يحسن تأليف الحجج

ومثله من وزراء المتوكل في كثرة مادحيه عبيد الله بن يحيى بن خاقان، وهو أيضاً، من ممدوح البحتري، ومن مادحيه[٣] محمد بن غالب الأصبهاني والقنبري[٤]، وفيه يقول أبو هفان يوم النيروز وفيه تقدم هدايا كثيرة[٥]:

إذا نحن مدحناك رعينا حرمة المجد

وما استطرفت للإهدا ء إلا طرف الحمد

وكان يزر للمنتصر أحمد بن الخصيب ولم تكن له رصانة صاحبيه، بل كان فيه حمق كثير، ومع ذلك مدحه غير شاعر طلباً للربح والنوال، من مثل قول محمد بن غياث الكاتب فيه[٦]:

سموه أحمد فالإسلام يحمده والدهر كاسم أبيه ممرع خصب

فلا فضائل إلا منه أولها ولا مواهب إلا دون ما يهب

---

[١] أنظر مثلاً ترجمة ابن أبي فنن الشاعر في تاريخ بغداد ٢٠٢/٤.

[٢] معجم الشعراء ص ١٩١.

[٣] معجم الشعراء ص٤٠٩.

[٤] نفس المصدر ص ٤٢٣.

[٥] طبقات الشعراء لابن المعتز ص٤٠٩.

[٦] معجم الشعراء ص ٣٧٨.

ووزر للمستعين أبو محمد صالح بن يزداد، ويردد البحتري في ديوانه مديحه، وتلقانا مدائح في وزراء المعتز مثل عيسى بن فرخانشاه وجعفر بن محمود الإسكافي. ويتولى وزارة المهتدى سليمان بن وهب، وهو كما يقول الفخري أحد كتاب الدنيا وأحد عقلاء العالم، وكان يحسن الشعر كما كان يحس الكتابة، وهو من ممدوحي البحتري، وفي كتاب الأغاني ترجمة طويلة له، وكثير من المدائح قدمت إليه من مثل قول هرون بن محمد البالسي[١]:

أسفر الشرق منك والغرب عن ضو ء من العدل فاق ضوء البدور

أنشر الناس غيثكم بعد ما كا نوا رفاتاً من قبل يوم النشور[٢]

ووزر للمعتمد الحسن بن مخلد، وكان ماهراً في الكتابة، وهو أيضاً من ممدوحي البحتري، وكان مقصداً للشعراء. ويخلفه إسماعيل بن بلبل، وهو كسابقه من ممدوحي البحتري، ومدائح ابن الرومي وأهاجيه فيه مشهورة. ويكثر البحتري وابن الرومي معاً من مديح وزير المعتمد صاعد وابنه العلاء وأخي عبدون، كما يكثر ابن الرومي من مديح عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتمد وابنه القاسم وزير المعتضد، وفي ديوان ابن المعتز مدائح لهما مختلفة. وتدور أسماء وزراء المكتفي والمقتدر على ألسنة الشعراء، وفي ابن الفرات وزير المقتدر يقول ابن العلاف[٣]:

يتلقى الندى بوجه حيى وصدور القنا بوجه وقاح

هكذا هكذا تكون المعالي طرق الجد غير طرق المزاح

ولأبي بكر يحيى بن محمد الصولي أشعار ومدائح كثيرة في وزراء العصر المتأخرين منذ عصر المقتدر، وكان يدمج مديحهم في مديح الخلفاء، وقد يمدحهم ملحقاً مستقلاً من مثل قوله في أبي عبد الله البريدي وزير الخليفة المتقي[٤]:

ما رأى الناس بالوزير البريد ي كذا اليوم منه حسناً وفخراً

الذي يعشق المكارم والمجـ ـد ويشري بالمال حمداً وشكراً

ولعل أكثر الولاة مديحاً في هذا العصر آل طاهر، وفي مقدمتهم طاهر بن عبد الله بن طاهر والي خراسان، ومحمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد وأخواه عبيد الله وسليمان ،وعرضنا فيما

---

[١] أغاني (ساسي) ٦٧/٢٠ ومعجم الشعراء ص ٤٦٤.

[٢] أنشر: أحيي.

[٣] طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٥٩ مقابلة على ص ٤٥٤.

[٤] أخبار الراضي والمتقي بالله للصولي ص ٢٠٢.

أسلفنا مدائح البحتري وابن الرومي فيهم، وممن كان منقطعاً إليهم أبو الأشعث المروزي[١]. وفي طاهر يقول مدرك ابن غزوان الجعفري من قصيدة[٢]:

حمى طاهر شرق البلاد بيمنه وشعث النواصي لا تجف لبودها[٣]

ينيخ بها أرض العدو ويبتني مآثر مجد كان قدماً يشيدها

وممكن كان يخص محمد بن عبد الله بن طاهر بمدائحه ابن أبي فنن، وتصادق أن كانت له ضيعة بجوار إقطاع له، وكان عامل الخراج والعشور يلح عليه في طلب عشوره وخراجه، وربما آذاه، فكتب على محمد يستغيث به من قصيدة طويلة[٤]:

أبني حسين إنني أصبحت في كنف الأمير

ولنا معاش في قطيـ عته على الماء النمير

لولا تردد عامل كالكلب في يوم مطير

فهل الأمير بجوده من قبح طلعته مجيري

فلما قرأ محمد القصيدة وقع تحتها قد أجرناك أبا عبد الله وأمرنا لك باحتمال خراجك- وكن في كل سنة ستة آلاف درهم- وحمل إليه ألف دينار، وحلف عليه أن يقبلها. قال ابن أبي فنن: وصرت منذ هذا الحين أمدحه في كل عام بقصيدة. ومن الولاة الذين طالما مدحهم الشعراء أبو جعفر أحمد بن محمد الطائي وإلى الكوفة، وهو من ممدوحي البحتري وابن الرومي، ومثله إبراهيم بن المدبر الذي ولي الدواوين في سامراء وبغداد وولي في بعض السنوات البصرة فأغرق الشعراء بأمواله وأغرقوه بمدائحهم، وهو ممدوح البحتري. ونرى شاعراً يكاد يخصه بمديحه وخاصة طوال مقامه في البصرة، وهو أبو شراعة شاعرها، وكان لا يفارق أيام تقلده لها ولا يمنعه حاجة ولا شفاعة يسألها إلا حققها له، وفيه يقول[٥]:

إنما لذتاك في المال شتى صونك العرض وابتذال المال

ما نبالي إذا بقيت سليماً من تولت به صروف الليالي

---

[١] معجم الشعراء ص ٣٩٢.

[٢] معجم الشعراء ص ٣٣٤.

[٣] شعث النواصي: الخليل .

[٤] طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٦ والديارات ص ١٢٥.

[٥] أغاني (طبع الاسي) ٣٦/٢٠.

ومر بنا في حديثنا عن البحتري أنه مدح أحمد بن طولون أمير مصر وابنه خمارويه وبعض قواده، وأنه كان يمدح الهيثم بن عبد الله التغلبي وإلى الموصل وسيما الطويل وإلى حلب ورافع بن هرثمة وغلى الري، كما مدح بعض قواد الترك مثل وصيف الصغير وأذكوتكين. ولا بد أن شعراً كثيراً نظم في مديح القواد، إذ تشير نصوص كثيرة إلى أن هذا الشاعر أو ذاك كان من شعراء العسكر، ومع ذلك نفتقد الشعر الذي يصور بطولة قواد العصر إلا ما نظم في الموفق وابنه المعتضد، مما مرت بنا الإشارة إليه عند البحتري وابن الرومي وابن لمعتز. ويتعرض أو بكر الصولي لبعض القواد في عصره وخاصة في مديحه لبعض الخلفاء من مثل محمد بن ياقوت القائد في عصر الراضي، وكان يتحكم في شئون الدولة حتى أصبح ابن مقلة الوزير معه كالعارية وله فيهما ضادية طويلة[١]. وامتدح الشعراء كثيرين من الكتاب ورؤساء الدواوين- وأكثر من سميناهم من الوزراء عملوا في الدواوين أولاً- وممن كان ممدحاً منهم آل ثوابه، وقد توارثوا ديوان الرسائل منذ عصر المعتمد، وكان من أكثرهم جوداً وكرماً أبو العباس أحمد بن محمد بن ثوابة، وهو ممدوح البحتري، وكان يمدحه شعراء كثيرون دبجوا فيه أشعاراً بديعة من مثل قول أبي هفان[٢]:

الثوابي فتى ليس له في سوى السؤدد والمجد وطر

وقوله[٣]:

نفسي فداء أبي العباس من رجل لم ينسني قط في ناي ولا كثب

يقرى وبالرقة البيضاء منزله من بالعراقين من عجم ومن عرب

ولعل من الخير أن نعرض ثلاثة من شعراء هؤلاء الرؤساء ليتضح لنا مديحهم في أضواء أكثر وضوحاً، وهم أبو علي البصير وأحمد بن أبي طاهر وابن دريد.

---

[١] أخبار الراضي والمتقي للصولي ص ١٠.

[٢] طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤١٠.

[٣] ديوان المعاني ٦٥/١.

أبو علي[١] البصير

اسمه الفضل بن جعفر بن الفضل بن يونس، اصل أسرته من الأنبار، انتقلت إلى الكوفة فنزلت في حي النخع، وهي أسرة فارسية الأصل. وكان أبو علي ضريراً ولقب البصير على العادة في التفاؤل أو لذكائه وفطنته. وكان شيعي الهوى على مذهب أهل بلدته الكوفة ،وأكبر الظن أنه كان إمامياً يؤمن بالتقية، ولذلك لم ير باساً في أن يترك الكوفة إلى بغداد وسامراء. ونزل الأخيرة في خلافة المعتصم ومدحه ومدح جماعة من قواده، ولزم المتوكل والفتح بن خاقان يمدحهما وينال جوائزهما، ولحق زمن المعتز وهنأه بالخلافة كما مر بناف ي غير هذا الموضع. ولم يكن شاعراً فحسب، بل كان أيضاً صاحب رسائل نثرية بارعة، وفي الجزء الرابع من جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي صفوت قطعة منها بديعة. ويقول المسعودي: "كان من أطبع الناس في زمانه لا يزال يأتي بالبيت النادر والمثل السائر الذي لا يأتي به غيره، وله في الفضل حفيد الحسن بن سهل:

ملك ندفع- ما نخشى- به ... وبه- نصلح منا ما فسد

ينجز الناس إذا ما وعدوا ... وإذا ما أنجز الفضل وعد

ودقة العبارة واضحة، وواضح معها دقة الفكرة في البيت الثاني، فالفضل لا يزال يؤدي وعوده وكلما أدى وعداً وعد ثانية، فهو بحر من الجود لا ينقطع فيضه، ومن طريف ماله في الفتح بن خاقان قوله واصفاً بلاغته وشعره:

سمعنا بأشعار الملوك فكلها ... إذا عض متنيه الثقاف تأودا

سوى ما رأينا لامرئ القيس إننا ... نراه متى لم يشعر الفتح أوحدا

أقام زماناً يسمع القول صامتاً ... ونحسبه إن رام أكدي وأصلدا[٢]

فلما امتطاه راكباً ذل صعبه ... وسار فأضحى قد أغار وأنجدا

فأشعار الملوك قبل الفتح لا تثبت عند الثقاف والتمحيص ولا تستقيم بل تتأود وتتثنى إلا ما كان من شعر امرئ القيس، ولكن بشرط ألا ينظم الفتح وكأنه يعلو به على أبي الشعر العربي

---

[١] أنظر في أخبار أبي على البصير وأشعاره كتاب طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٨ ومروج الذهب السعودي ٦٢/٤ ، ٨٤ ومعجم الشعراء للمرزباني ص ١٨٥ ونكت الهميان ص ٢٢٥ وزهر الآداب الحصري ٩٥/٣ ، ١٩٣ والديارات ص ٨١ ، ٢٤٨ والفهرست ص ١٨٤.

[٢] أكدي وأصلد: أعطى قليلاً.

كله. وصوره يطيل إرهاف سمعه لمادحيه، حتى ليظن الرائي أنه لا يحسن قوله الشعر ولا نظمه، حتى إذا رامه ونظمه ذاع في طول البلاد وعرضها وفي حزنها وسهولها ونجادها وأغوارها. ويقول الرواة إنه كان يتشيع وإن له في ذلك أشعاراً، ولم يصلنا من هذه الأشعار شيء ولعل كثيراً منها كان في مدح آل البيت. وروي له الحصري تهنئة بمولود، نظن ظنا أنه قدمها لأحد أفراد البيت العلوي، وفيها يقول:

أتاني البشير بن قد رزقت ... غلاماً فأبهجني ما ذكر

فعمرك الله حتى ترا ... ه قد قارب الخطو منه الكبر

وحتى ترى حوله من بنيه ... وإخوته وبنيهم زمر

وأوزعك الله شكر العطاء ... فإن المزيد لعبد شكر

وصلى على السلف الصالحـ ... ين منكم وبارك فيمن غبر

وكان يؤذي نفسه إيذاء شديداً أن يقدم شعره أحياناً لبعض الرؤساء أو بعض رجال الدولة فلا يأبه له أو لا يعطيه ما يستحقه، وتصادف أن أفراداً مختلفين وقفوا منه هذا الموقف في صور مختلفة، فعزت عليه نفسه وكرامته، وأنشأ يقول:

وإني قد بلوتكم جميعاً ... فما منكم على شكري حريص

وأرخصت الثناء فعفتموه ... وربما غلا الشيء الرخيص

فعفت نوالكم ورغبت عنه ... وشر الزاد ما عاف الخصيص[١]

ولعل شخصاً لم يؤذ نفسه وكبرياءه كما آذاه المعلي بن أيوب أحمد قواد الجيش، ولعل ذلك ما جعله يخصه بيتين كأنهما سهمان مصميان، إذ يقول فيه:

لعمر أبيك ما نسب المعلي ... على كرم وفي الدنيا كريم

ولكن البلاد إذا اقشعرت ... وصوح نبتها رعي الهشيم[٢]

وكان يحس فقده لبصره إحساساً عميقاً، ولكن ذلك لم يكسر نفسه ولا أصابه بهوان، إذ نراه يدل بأن غيره من المبصرين يستمدون علمهم من الكتب المخلدة، أما علمه فدفتره القلب وحبره السمع، ويعتذر اعتذارات طريفة عن أنه لا يستطيع شيئاً غلا بغيره كما نرى في مثل قوله:

لئن كان يهديني الغلام لوجهتي ... ويقتادني في السير إذ أنا راكب

---

[١] الخصيص: من الخصاصة ؛ وهي الفقر والاحتياج.

[٢] اقشعرت: أجدبت . وصوح: يبس .

لقد يستضيء القوم بي في أمورهم ويخبو ضياء العين والرأي ثاقب

وهو كثير السخرية في أشعاره. وله مداعبات ومجاوبات تدل على بديهة حاضرة حضوراً شديداً، وكثير منها كان يدور بينه وبين أبي العيناء الضرير ويروي أنه قال له: إنني ولدت وقت طلوع الشمس، فقال له تواً: لذلك خرجت مكدياً (شحاذاً) لأنه وقت انتشار المساكين. وله غزل بارع من مثل قوله:

ألت بنا يوم الرحيل اختلاسه فأضرم نيران الهوى النظر الخلس[١]

تأبت قليلاً وهي ترعد خيفة كما تتأبى حين تعتدل الشمس

فخاطبها صمتي بما أنا مضمر وأنبست حتى ليس يسمع لي حس[٢]

وولت كما ولي الشباب لطية طوت دونها كشحاً على نفسها النفس

والقطعة بديعة وتدل على رهافة الحس ودقة الشعور وخصوبة التفكير، وكأن البصير روي لنا قصة لا مجرة خطرات في الحب والوجد. وكان يشارك أحياناً في الخمر والمجون واللهو، وله دعابة نظمها وهو يريد الحج، صور فيها نفسه ألم بالكوفة والأديرة القائمة حولها في الحيرة، فنازعته نفسه أن يشرب في أحد الأديرة ويتزود من خمرها ما يكفيه حتى العودة، فقال صاحبه: حط أثقالنا، وسار الناس وأقاما، يقول:

خرجنا نبتغي مكـ ـة حجاجاً وزوارا

فلما شارف الحير ة حادي جملي حاراً

فقلت: احطط بها رحلي ولا تحفل بمن سارا

فقضينا لبانات لنا كانت وأوطارا

وما ظنك بالحلفا ء إن أشعلتها نارا

ويقال إنه تغير عقل أبي على البصير قبل موته بقليل، وكان يثوب إليه عقله، فيأسى على نفسه وما أصابه من خرف الشيخوخة، وفي ذلك يقول:

خبا مصباح عقل أبي علي وكانت تستضيء به العقول

إذا الإنسان مات الفهم منه فإن الموت بالباقي قليل

---

[١] الخلس: المختلس .

[٢] أنبس: همس بكلامه .

ولعل في كل ما ذكرناه من شعره ما يدل على حذقه حقاً وأنه كان خصب الذهن. وكان لا يزال يعرض على معاصريه ما يزيدهم به إعجاباً وبشعره استحساناً.

أحمد[١] بن أبي طاهر

اسم أبي طاهر طيفور، وأحمد ابنه رزق به في بغداد لسنة ٢٠٤، وأصل الأسرة من مرو، ويقال إنها من سلالة ملوك خراسان. أخذ عن علماء بغداد، حتى إذا استوى عوده جلس للتعليم في بعض الكتاتيب، ثم ترك التعليم واحترف الوراقة، مما جعله يقرأ كثيراً من مصنفات عصره والعصر السابق له، وسرعان ما تحول إلى مؤرخ كبير، كما يشهد بذلك كتابه تاريخ بغداد في أخبار الخلفاء والأمراء وأيامهم، وهو أحد المصادر الأساسية التي اعتمد عليها الطبري في تأليف كتابه تاريخ الرسل والملوك: أهم مرجع تاريخي للخلفاء حتى أوائل القرن الرابع الهجري. وله بجانب ذلك كتاب المنثور والمنظوم الذي يشتمل على أبرع الرسائل المدونة في العصر. وله كتاب فضائل الورد على النرجس وكأنه صنعه رداً على ابن الرومي وأمثاله ممن كانوا يفضلون النرجس على الورد. وكان يتشيع، ولكن ليس لدينا من شعره الشيعي سوى القصيدة التي أشرنا إليها في غير هذا الموضوع والتي رثى بها يحيى بن عمر الطالبي المقتول بالكوفة في زمن المستعين. ويبدو أنه كان إمامياً يأخذ بالتقية، ولا يجد بأساً في مديح الخلفاء العباسيين ورجال دولتهم" وفتحوا له جميعاً أبوابهم. وربما كان من أهم الأسباب في فتحها كتابه السالف "تاريخ بغداد" الذي أرخ فيه للدولة وخلفائها. وفتح له كتاب المنثور والمنظم أبواب الأدباء لا في بغداد وحدها، بل أيضاً في سامراء طوال اتخاذها حاضرة للخلافة. وبجانب تصنيفاته كان شاعراً بارعاً، ولكن قبل أن نعرض لشعره يحسن أن نقف عند ما قاله بعض معاصريه من أنه "كان مؤدب كتاب عامياً ثم تخصص وجلس في سوق الوراقين في الجانب الشرقي ببغداد، وليس فيمن شهر بمثل ما شهر به من التصنيف للكتب وقول الشعر أكثر تصحيفاً منه ولا أبلد علماً ولا ألحن، قال: ولقد أنشدني شعراً يعرضه علي في إسحق بن أيوب لحن في بضعة عشر موضعاً منه وكذا قال لي البحتري فيه". وشهادة البحتري فيه مردودة، لأنهما كان يتهاجيان ولا يرضى كل منهما عن صاحبه، ونفس أبي طاهر – كما في كتاب الموشح للمرزباني –خ يصف البحتري باللحن في شعره. وبالمثل شهادة هذا المعاصر له مردودة لأنه كان يخاصمه على ما يبدو. وليس في شعره الذي بين أيدينا ما يصور هذا اللحن، ونرى معاصريه ومن جاءوا بعدهم يشهدون له بالفصاحة والبلاغة، فالخطيب البغدادي– ومثله ياقوت– يقولان: "كأن أحد البلغاء الشعراء الرواة". وشعره

---

[١] أنظر في أخبار أحمد بن أبي طاهر طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤١٦ ومروج الذهب ٦٤/٤ والفهرست ص ٢١٥ حيث ذكر له ثمانية وأربعين كتاباً وتاريخ بغداد ٢١١/٤ ومعجم الأدباء ٨٧/٣ وكتاب الزهرة لابن داود (أنظر الفهرس) وديوان المعاني ٤٨/١ ، ٩٤ والموشح للمرزباني ص ٣٥١.

يشهد ببلاغته، وأخباره تدل على إعجاب معاصريه به وبشعره. وكان يغدو به ويروح على الوزراء، فيسبغون عليه جوائزهم من مثل قوله في أبي الصقر إسماعيل بن بلبل وزير المعتمد يهنئه بأحد أعياد النيروز وأوائل الربيع:

أبا الصقر لا زالت من الله نعمة ... تجددها الأيام عندك والدهر

ولا زالت الأعياد تمضي وتنقضي ... وتبقى لنا أيامك الغرر الزهر

فإنك للدنيا جمال وزينة ... وإنك للأحرار ذخر هو الذخر

رأيت الهدايا كلها دون قدركم ... وليس بشيء عند مقداركم قدر

فأهديت من حلي المديح جواهراً ... مفصلة يزهى بها النظم والنثر

وكانوا يتقدمون للوزراء وعليه القوم في أعياد النيروز بالهدايا كل حسب قدرته من الجواهر أو من الرياحين، ورأى ابن أبي طاهر أن خير ما يهديه لإسماعيل بن بلبل عقود أشعاره المرصوفة بالجواهر واللآلئ. والأبيات قوية جزلة مصقولة، وتدل على أن يد شاعر صناع هي التي كتبتها وصاغتها هذه الصياغة المتينة. وأروع من هذه القصيدة قصيدته في أبي أحمد عبيد الله بن عبد الله بن طاهر نائب أخيه محمد في حكم بغداد، ثم حاكمها بعد وفاته سنة ٢٥٢، وهي تلتقي بقصيدة تروي لابن الرومي سبق أن أنشدنا منها في ٣١٠ بعض أبيات. ولعل القصيدتين اختلطتا في أذهان الرواة؛ ومن قصيدة ابن أبي طاهر في مديح أبي أحمد كما جاءت عند بعض الرواة:

من لم يكن حذراً من حد صولته ... لم يدر ما المزعجان: الخوف والحذر

حلو إذا أنت لم تبعث مرارته ... فإن أمر فحلو عنده الصبر

سهل الخلائق إلا أنه خشن ... لين المهزة إلا أنه حجر

إذا الرجال دجت آراوهم وعموا ... بالأمر رد إليه الرأي والنظر

الجود منه عيان لا ارتياب به ... إذ جود كل جواد عنده خبر

وبلغ من إعجاب القدماء بهذا المديح أن قال بعض أدبائهم: لو استعمل الإنصاف لكان هذا أحسن مدح قاله متقدم ومتأخر. وهي أبيات- إن صح أنها لابن أبي طاهر- تدل على بصر بالشعر وروعة فنونه البديعية، وله رسالة في سرقات البحتري تدل من بعض الوجوه على ثقافته الشعرية، بل لقد اتسعت دراسته للشعر العربي على نحو ما يصور ذلك كتابه المنظوم والمنثور. وقد مضى يحكم في القصيدة التقسيم كما في الأبيات الأربعة الأولى، كما أحكم الطباق والتقابل بين المعاني والألفاظ على نحو ما يتضح في الأبيات الأربعة الثانية. وكان يحكم- بجانب

المديح- الهجاء اللاذع الذي يلسع كما تلسع الإبر دون فحش من مثل قوله في أبي العيناء الضرير نديم المتوكل والخلفاء ومضحكهم بإجاباته ونوادره:

كنا نخاف من الزما ن عليك إذ عمى البصر

لم ندر أنك بالعمى تغني ويفتقر البشر

وكان يتعرض أحياناً للمبرد، فيخشى معرة لسانه، ويقال إنه استقبله في يوم صيف شديد الحرارة فأكرمه وبالغ في إكرامه، فأطعمه غذاء طيباً، وسقاه بارداً، وأخذ يباسطه في الحديث. مؤملاً أن يمتدحه ببعض شعره، وإذا هو ينشده:

ويم كحر الشوق في صدر عائق على أنه منه أحر وأرمد

ظللت به عند المبرد قائلاً فما زلت في ألفاظه أتبرد[1]

فقال له المبرد: قد كان يسعك إذا لم تحمد أن لا تذم، ومالك عندي جزاء إلا أن تغرب عن عيني. فتركه وهو يضحك من أثر دعابته في نفس المبرد شيخ العربية لعصره. وأنشد له ابن داود طائفة كبيرة من غزلياته، من مثل قوله:

حبيبي حبيب يكتم الناس أنه لنا- حين ترمينا العيون- حبيب

يباعدني في الملتقى وفؤاده - وإن هو أبدى لي البعاد- قريب

ويعرض عني الهوى منه مقبل إذا خاف عيناً أو أشار رقيب

فتخرس منا ألسن حين نلتقي وتنطق منا أعين وقلوب

فهما يتناكران أمام الناس، وكل منهما شديد الكلف والولع، يتجرع غصص الهوى وآلامه، ولا يستطيع البوح بما في ضميره، وهما لذلك يصطنعان التحفظ والاحتشام، وقلوبهما تحترق وجداً، وقد خرست منهما الألسنة ونطقت العيون بمكنون الضمير. وهو مع ذلك يكثر من الاختلاف إلى دارها ومجلس مولاها وليس من رسل بينه وبينها سوى لغة العيون، يقول:

إذا ما التقينا والوشاة بمجلس فليس لنا رسل سوى الطرف بالطرف

فإن غفل الواشون فزت بنظرة وإن نظروا نحوي نظرت إلى السقف

فهو يسارقها النظر ويختلس منها النظرة في الحين بعد الحين، حتى لا يفتضح أمرهما للواشين ويجعلهم يقفون على حبه للمرأة وحبها له وأنها لا تفرط فيه، بل شديدة الحرص عليه.

---

[1] قائلاً: مستريحاً وقت القيلولة ؛ وهي نصف النهار .

ومع ذلك يجري بينهما حديث صامت لا أول له ولا آخر عن عذابهما في الحب وما يصطليان من ناره، على الرغم من الرقباء والوشاة، يقول:

عرفت بالسلام عين الرقيب وأشارت بلحظ طرف مريب

وشكت لوعة النوى بجفون أعربت عن ضمير قلب كئيب

رب طرف يكون أفصح من لف ظ وأبدى لمضمرات القلوب

فهي تلفته بلحظها الفاتن إلى الرقيب، وتشكو لوعة النوى وحرقة الحب بعيونها، واصلة نظرها الشزر إلى الرقيب بنظرها اللين إليه معربة عن ضميرها وما يخفى في صدورها من الحب له والكلف به. وهو يحدثها بنفس اللغة، فيفهم قلبها عن قلبه وضميرها عن ضميره، وتبادله بنفس اللغة أنها على الوفاء له مقيمة، يقول:

ألاحظها خوف لمراقب لحظة فأشكو بطرفي ما بقلبي من الوجد

فتفهمه عن لحظ عيني بقلبها فتومي بطرف العين أنى على العهد

فهما يتكلمان بلغة الطرف، لغة يصمت فيها اللسان، وتنطق القلوب بما تضمن من الوجد ولوعاته، وهما يتغامزان بالنظرات ويتلاحظان، وكأنما لا يتكلمان بتلك اللغة الصامتة الفصيحة فقط بل يتراسلان بها ويتكاتبان مكاتبات حارة، يقول:

كتبت إلى الحبيب بكسر عيني كتاباً ليس يقرؤه سواه

فأخبروني تورد وجنتيه وكسر جفونه أن قد قراه

ولعل في كثرة رسوم ابن أبي طاهر لهذا الموقف ما يدل على دقة حس من طرف وثراء خواطره وأفكاره من طرف آخر، وفي كثير من هذه الرسوم براعة في التصوير كما نرى في البيت الأخير، ومن بديع تصويره قوله في إحدى المحجبات اللائي شغف بهن:

حجاب فإن تبدو فللدمع جولة يكون له من دون رؤيتها ستراً

فهو دائماً منها في حجابين، حجاب حين لا يلقاها. وحجاب من دموعه حين يلقاها، وكأنها محجبة دائماً، وراء أستار من الحجاب صفيفة وأستار أخرى رقيقة من الدموع الغزار. ويحدثنا ياقوت نقلاً عن أحد الرواة أنه كان يلم ببعض الأديرة أحياناً في طريقه إلى سامراء أو بعد رجوعه منها، وينشد له خمرية، ويبدو أن الخمر لم يتكن من متاعه إلا في بعض أحوال عارضة. وما زال يعني بالتصنيف ونظم الشعر حتى توفى سنة ٢٨٠ للهجرة.

ابن[١] دريد

هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد، من أزد عمان، كانت أسرته على شيء من اليسار، وقد استوطن أبوه البصرة، وفيها ولد له سنة ٢٢٣ وعني عمه الحسين بتعليمه فألحقه منذ نعومة أظفاره بالكتاتيب ثم بحلقات العلماء، وكانت له ذاكر عجيبة لا يكد شيء يسمعه يفلت منها، مما أعده لن يكون من كبار اللغويين في عصره. وقد أكب على محاضرات الرياشي وأبى عثمان الأشناندانى وأبي حاتم السجستاني وغيرهم من علماء البصرة، فأخذ كل ما عندهم. ولما استباح الزنج البصرة سنة ٢٥٧ ونكلوا بأهلها تنكيلاً شديداً فر مع عمه الحسين إلى عمان وطن قبيلته الأزد، وظل بها اثني عشر عاماً إلى أن قضي الموفق على ثورة الزنج قضاء نهائياً ،وحينئذ يعود إلى البصرة حين عاد إليها الأمن والسلام. ويظل بها إلى أن يستدعيه عبد الله بن محمد بن ميكال والي الأهواز وفارس لتأديب انبه أبي العباس إسماعيل وتثقيفه. ويلبي الدعوة، ويرحب به الوالي ترحيباً عظيماً ،ويقلده ديوان إمارته فارس وتقبل عليه الدنيا إذ تنهال عليه الأموال. وينظم في الوالي وابنه قصيدته الطويلة المشهورة باسم المقصورة، التي عرضنا لها في حديثنا عن الشعر التعليمي وتطير شهرتها وتتكاثر شروحها، وتطبع في عصرنا بشرح التبريزي وبشروح أخرى وتكثر تخميساتها على مر القرون. وفي أثناء عمله عند ابن ميكال ألف الجمهرة لابنه إسماعيل، وهي معجم لغوي بدأ فيه على طريقة معجم العين المنسوب إلى الخليل الثنائي ثم بالثلاثي ثم بالرباعي ثم بملحقه ثم بالخماسي والسداسي وملحقاتهما،وجمع النوادر في باب منفرد. أملاها أولاً في فارس، ثم أملاها في البصرة ثم في بغداد ولذلك اختلفت نسخها اختلافات كثيرة. وكان من أهم ما ألفه لإسماعيل، كي يحسن العربية، كتاب الأربعين حديثاً، قص فيه حكايات عربية قديمة تقوم عل الحب غالباً كما تقوم على التاريخ، ويقول الحصري عن هذه الأحاديث إنها هي التي ألهمت بديع الزمان مقاماته[٢]. ويبدو أنه ألف عند ابني ميكال كثيراً من مصنفاته، ومما نشر له منها في عصرنا كتاب الاشتقاق وكتب السرج واللجام وكتاب صفة السحاب والغيث وكتاب الملاحن ويشتمل على ألغاز لغوية. وما زال يعيش في رحاب ابني ميكال حتى عزلا عن

---

[١] أنظر في ترجمة ابن دريد وأشعاره معجم الشعراء ص ٤٢٥ وتاريخ بغداد ١٩٥/٢ وابن خلكان ومعجم الأدباء ١٢٧/١٨ ونزهة الألباء.والفهرست ص ٩٧ وشذرات الذهب ٢٨٩/٢ ولسان الميزان ١٣٢/٥ وتكملة تاريخ الطبري للهمداني ص ٧٦ والوافي بالوفيات للصفدي ٣٣٨/٢ ومروج الذهب للمسعودي ٢٢٩/٤ وطبقات الشافعية ١٣٨/٣ والنجوم الزاهرة ٢٤٠/٣ روضات الجنات ٦٠٥ وقد طبع ديوانه في القاهرة.

[٢] أنظر زهر الآداب ٣٠٧/١ وكتابنا الفن ومذاهبه في النثر العربي (طبع دار المعارف – الطبعة السادسة) ص٢٤٨.

فارس، فانتقل إلى مسقط رأسه، ثم تركها إلى بغداد سنة ٣٠٨ وكان صيته وشهرته العلمية سبقاه، فاستقبلته بغداد استقبالاً حافلاً،وأجرى عليه المقتدر خمسين ديناراً شهرياً على أن توفى سنة ٣٢١ عن نحو ثمانية وتسعين عاماً. وأهم مدائحه وأشعاره مقصورته التي ذكرناها آنفاً، وقد حللناها في حديثنا عن الشعر التعليمي، ونقف منها الآن عند مديحه للأمير عبد الله بن محمد بن ميكال وابنه أبي العباس إسماعيل، وفيهما يقول:

تلافيا العيش الذي رنقه ... صرف الزمان فاستساغ وصفا[١]

وأجريا ماء الحيالي رغداً ... فاهتز غصني بعد ما كان ذوي[٢]

إن ابن ميكال الأمير انتاشني ... من بعد ما قد كنت كالشيء اللقا[٣]

ومد ضبعي أبو العباس من ... بعد انقباض الذرع والباع الوزي[٤]

ذاك الذي ما زال يسمو للعلا ... بفعله حتى علا فوق العلا

لو كان يرقى أحد بجوده ... ومجده إلى السماء لارتقى

ما إن أتى بحر نداه معتف ... على أواري علم إلا ارتوى[٥]

نفسي الفداء لأميري، ومن ... تحت السماء لأميري الفدا

وطبيعي أن يعني ابن دريد في هذا المديح بإدماج شيء فيه من الألفاظ الغريبة، لأنه أراد بالقصيدة أن تكون متناً لغوياً،وتحققت له إرداته، لا بما وضع فيها من ألفاظ غريبة فحسب، بل أيضاً بما حشد فيها من الألفاظ المقصرة. ومع ذلك فقد استطاع فيها أن يوازن بين ما جمع من الألفاظ الغريبة ولغة الشعر العذبة، فاختار لها أسلوباً وسطاً بين الإغراب والسهولة، كما أشرنا إلى ذلك في غير هذا الموضع. وهذه الأبيات نفسها تصور هذا الملك، فهي لا تتعمق في الإغراب، بل تظل فيها نضرة الشعر وجماله. وله وراءها مدائح مختلفة لا يغمسها في الغريب وألفاظه من مثل قوله في أبي أحمد حجر الجويمي أحمد رجالات فارس النابهين:

حجر بن أحمد فارع الشرف الذي ... خضعت لعزته طلي الأعناق[١]

---

[١] رنقة: كدره .

[٢] الحيا: الغيث والخصب .

[٣] انتاشي: تناولني . واللقا: المرمى في عرض الطريق لا يعبأ به.

[٤] الضبع: وسط العضد . ومد ضبعيه بسطهما ، كناية عن اتساع حاله . وانقباض الذرع والباع كناية عن ضيق الحال.

[٥] الندى: الكرم . المعتفى: طالب النوال والأواري: النار . العلم: الجبل.

انظر أنامله فلسن أناملاً — لكنهن مفاتح الأرزاق

وانظر إلى النور الذي لو أنه — للبد لم يطبع برين محاق[٢]

وكيف يجيد فن الرثاء، وله مرثية بديعة في عمه الحسين بن دريد الذي تعهد تربيته، ومن خير مراثيه مرثية في محمد بن جرير الطبري علم الدراسات الدينية والكتابات التاريخية في عصره، وفيها يقول:

إن المنية لم تتلف به رجلاً — بل أتلفت علماً للدين منصوباً

كان الزمان به تصفو شاربه — والآن أصبح بالتكدير مقطوبا[٣]

كلا وأيامه الغر التي جعلت — للعلم نوراً وللتقوى محاريبا

وتنسب له قصيدة في ذكرى الرسول عليه السلام نشك في نسبتها إليه لأن قصائد هذه الذكرى إنما ذاعت وشاعت في عصر متأخر. وله قصيدة طويلة في رثاء الإمام الشافعي، أو بعبارة أدق في بيان مكانته العلمية الخطيرة، وفيها يقول:

لرأي ابن إدريس ابن عم محمد — ضياء- إذا ما أظلم الخطب- صادع

إذا المعضلات المشكلات تشابهت — سما منه نور في دجاهن ساطع

أبى الله إلا رفعه وعلوه — وليس لما يعليه ذو العرض واضع

وهي قصيدة بديعة. وبحق يقول المسعودي إنه كان يذهب في الشعر كل مذهب، فطوراً يجزل وطوراً يرق، وطوراً يصب بدوياً متعمقاً في الفلوات وفي وصف الإبل والخيل، وطوراً يصبح حضرياً يصف الرياض والزهور، ومن قوله في النرجس:

عيون ما يلم بها الرقاد — ولا يمحو محاسنها السهاد

لها حدق من الذهب المصفى — صياغة من يدين له العباد

وأجفان من الدر استفادت — ضياء مثله لا يستفاد

ومن تمام هذا الإحساس الحضاري عنده أن نجده يتغزل أحياناً غزلاً رقيقاً، من مثل قوله واصفاً مدى فتنة الناس بمحبوبته، حتى كأنهم جميعاً شركاء له في الحب وضناه:

---

(١) طلي: جمع طلية ، وهي أصل العنق.

(٢) الرين: الأذى . يطبع: يدنس.

(٣) مقطوباً: ممزوجاً.

أعاد من أجل لا من ضني وسائر العواد أشراكي

ولست أشكوك إلى عائد أخاف أن أشكو إلى شاكي

فالناس يزورونه من ضناه في حب صاحبته لا من ضنا مرض ألم به، وهو لا يشكو لهم من عذابه في حبها ولا من وصبه فيه، لأنه يراهم جميعاً مثله، يعانون ما يعانيه من لوعات الحب وآلامه. وكان يتورط في الخمر وإثمها، كما كان يتعلق بالغناء وآلاته، حتى ليقول بعض معاصريه ممن كانوا يزورونه في شيخوخته إنه كان يستحي مما يرى من الشراب والعيدان المعلقة، ومن قوله يصف الخمر قبل المزج وبعده:

وحمراء قبل المزج صفراء بعده أتت بين ثوبي نرجس وشقائق

حكت وجنة المعشوق صرفاً فسلطوا عليها مزاجاً فاكتست لون عاشق

ويقال إنه عرض له في أواخر عمره فالج (شلل) وسقى الدرياق فبرئ، ورجع إلى أفضل أحواله وإملائه على تلامذته. ثم مرض به ثانية، وظل سنتين توفى في نهايتهما، وتصادف أن كانت وفاته في نفس اليوم الذي توفى فيه أبو هاشم الجبائي المتكلم المعتزلي المشهور، ودفنا معاً ببغداد في مقبرة الخيزران.

٥

شعراء الهجاء

مر بنا في كتاب العصر العباسي الأول أن شعر العصبيات القبلية خبت ناره فيه وخبت معه نار النقائض، وحل محله شعر شعوبي أحياناً ،ولكن الكثرة الكثيرة كانت هجاء شخصياً يتعرض للأعراض مزرياً بالمهجوين محقراً لهم ومهوناً. ونستطيع أن نطرد هذا الحكم في العصر العباسي الثاني، مع ملاحظة أن الشعر الشعوبي خبت ناره بدوره. ويبدو أن الفرس هم الذين كانوا يمدون تلك النار بوقود جزل، فلما ضعف شأنهم في العصر وحل لترك محلهم في السلطان ولم يعد لهم حول ولا قوة خفت حدة شعوبيتهم ولم يعد شعراؤهم يتغنون بها إلا نادراً، وحتى هذا النادر لم تحتفظ به المصادر إلا قليلاً جداً، لنه لم يكن لشعراء نابهين إنما كان لشعراء مغمورين قلما عنى به من أحد مثل محمد بن أبان الذي كان يكثر من الافتخار بالعجم[١]، ولم يبق من افتخاره شيء. وبذلك كان الهجاء الشخصي هو اللون العام في العصر وظل معه ذكر العورات مما ينبو عن الذوق هو وكل ما يتصل به من بذاءة، لن نقف عندها إنما نقف عند الهجاء غير البذيء، وكانت نيرانه مضطرمة طوال العصر، فالشعراء يسارعون إليه كلما حجبهم وزير أو قصر في عطائهم، وكذلك كلما لقيهم قائد أو وال أو كاتب أو شخص نابه أو عالم لقاء غير حميد. وكثيراً ما كانت تجرهم المنافسة إلى الدخول في معارك هجاء حامية الوطيس. ومر بنا في غير هذا الموضع، ما قيل عن البحتري من أنه هجا كثيراً من ممدوحيه، وبالغ بعض القدماء فقالوا إنه هجا نحواً من أربعين رئيساً ممن مدحهم، منهم خليفتان هما المنتصر والمستعين، وساق بعدهما الوزراء ورؤساء القواد ومن جرى مجراهم من جلة الكتاب والعمال ووجوه القضاة والكبراء[٢]. وإذا صح هذا عن البحتري الذي كانت تفتح له الأبواب الموصدة، وكان يمشي- بفضل جوائزه الكثيرة- في موكب من عبيده فضلاً عما كان يملك من الضياع فإن كثيرين غيره تورطوا في الهجاء للرؤساء بأكثر من تورطه. ومر في حديثنا عن ابن الرومي إكثاره من الهجاء ونفوذه فيه إلى لون من التصوير الهزلي الساخر يكبر فيه عيوب المهجوين الجسدية والمعنوية. وابن الرومي والبحتري أكبر شعراء العصر، وعلى غرارهما كان الشعراء جميعاً يسهمون في هذا الفن، وكثيراً ما كانوا يخصون به الوزراء حين يحرمونهم الجائزة، ولن ينفع الوزير عندهم أن يكون

---

[١] معجم الشعراء ص ٣٧٩.

[٢] الموشح للمرزباني ص ٣٣٦.

ممدحاً، بل لعل ذلك أدعى إلى أن يسلط عليه الشاعر سهام هجائه، من مثل قول دندن في عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل وكاتبه ابن يزداد:

وإن ابن يزداد لحول حول ولكنه يقرا (إذا الشمس كورت)

فقل لعبيد الله أحييت دولتي مكاسير زمني (عطلت) فتحيرت

وأنت– إذا ميزت– أبلد منهم فصوتكم: حي المنازل أقفرت

ومجيئه بالآية القرآنية وكلمة (عطلت) الواردتين في سورة التكوير يريد أن يشير بذلك إلى خراب الدولة، لأن السورة في وصف نهاية العالم وما يكون بعد ذلك من البعث والنشور. وكان الشعراء كثيراً ما يتعرضون لأحمد بن إسرائيل وزير المعتز بالهجاء من مثل قول محمد بن مكرم[١]:

إن زماناً أنت مستوزر فيه زمان عسر أنكد

يذمك الناس جميعاً فما يلقاك منهم أحد يحمد

ولما انتكست الوزارة في عصر المقتدر وكثرت الرشوة وعم الفساد في الحكم وعم معه الظلم كما عمت مصادرة الأموال، توالى على الوزارة اثنا عشر وزيراً، ومنهم من تولى الوزارة مرتين وثلاثاً، وكل وزير يصادر الذي قبله ويعمل كل ما في وسعه لينهب أكثر ما يمكن من أموال الدولة، لما حدث كل هذا الانتكاس لأداة الحكم كثر هجاء الوزراء من مثل قول بعضهم في هجاء الخاقاني الوزير[٢]:

للدواوين– مذ وليت– عويل ولمال الخراج سقم طويل

يتلقى الخطوب حين ألمت منك رأى غث وعقل ضئيل

إن سمنتم من الخيانة والجو ر فللارتفاع جسم نحيل

وكان الخاقاني معروفاً بسوء السيرة والتدبير، وأخذ الرشوة ممن يوليهم الأعمال، ولذلك كثرت في أيامه الولاية والعزل، وكأن الدولة أصبحت دولة لصوص وقطاع طرق. ومن هؤلاء اللصوص وقطاع الطرق ابن البريدي الوزير بأخرة من العصر وفيه يقول أبو الفرج الأصبهاني من قصيدة طويلة[٣]:

---

[١] معجم الشعراء ص ٣٩٧.

[٢] الفخري ص١٩٨.

[٣] تكملة تاريخ الطبري للهمداني ص ١١٣.

يا سماء اسقطي ويا أرض ميدي　　قد تولى الوزارة ابن البريدي

هد ركن الإسلام وانهتك الملـ　　ـك ومحت[١] آثاره فهو مودي

فاستهلي يا عين بالدمع سحا　　وقليل أن تذرفي وتجودي

ومر بنا آنفاً أن المنافسة بين الشعراء كثيراً ما دفعتهم إلى التهاجي، وممن تعرضوا له بالهجاء كثيراً مروان بن أبي الجنوب شاعر المتوكل، إذ كانوا ينفسون عليه الجوائز الطائلة التي كان يخصه بها المتوكل، حتى من كانت تصلهم منه جوائز مماثلة، وكأنه تحاسد أهل الحرفة الواحدة، على نحو ما حدث بينه وبين علي بن الجهم، وكان أكثر توقراً منه في هجائه، إذ لم يكن يسف فيه إلى ذكر الأعراض. ويتهاجى مع أبي نعامة الدقيقي، ويكويه بمثل قوله في نعت شعره[٢]:

رأينا البرد مشتداً　　فساءلنا عن القصـة

فقالوا منشد ينشـ　　ـد شعر ابن أبي حفصه

وكان أبو نعامه كما مر بنا شيعياً وكان خبيث اللسان، فقصر شعره على هجاء القواد ورؤساء الدولة في أيام المتوكل ورماهم بأشنع القبائح، وهو هجاء كانت بواعثه سياسية. وكانوا ربما يهجون بالتزندق والانحراف عن الدين والإلحاد من مثل قول الجماز في الجاحظ[٣]:

يا فتى نفسه إلى　　ملة الكفر تائقه

لك في الفضل والتزهـ　　ـد والنسك سابقه

فدع الكفر جابناً　　يا دعي الزنادقة

وهو كذب وبهتان على الجاحظ أحد المحامين عن الإسلام في عصره المدافعين المناضلين، ولكنه الهجاء يصم الناس بوصمات كاذبة افتراء وبهتاناً. ومن مثل هذا الافتراء والبهتان قول شاعر في محمد بن يزيد المبرد العالم النحوي المشهور[٤]:

سألنا عن ثمالة كل حي　　فقال القائلون ومن ثماله

فقلت محمد بن يزيد منهم　　فقالوا زدتنا بهم جهاله

---

[١] محت: درست .

[٢] طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٢.

[٣] معجم الشعراء ص ٣٧٥.

[٤] ديوان المعاني ١/١٧٨.

وثمالة هي عشيرة المبرد، والبيتان يحملان تحقيراً شديداً وتهويناً بعيداً للمبرد وأنه خامل الذكر، وكان قد طبق آفاق البلاد العربية شهرة في عصره وقصده الطلاب من كل بلد يحملون عنه علمه. وبلغ من شيوع الهجاء حينئذ وانتشاره في كل الأوساط أن المرأة شاركت فيه، وكان لها قديماً مشاركة في رثاء أهلها وندبهم والتفجع عليهم والنواح، وكذلك كان لها مشاركة في الغزل والتعبير عن عواطف الحب ومشاعره، حتى إذا كان هذا العصر رأيناها تضيف إلى هذين الموضوعين مشاركة في الهجاء من مثل قول الخنساء جارية هشام المكفوف في أبي الشبل الشاعر الماجن، تهون من رجولته طاعنة له في الصميم[١]:

ما ينقضي عجبي ولا فكري ... من نعجة تكني أبا الشبل

لما اكتنيت لنا أبا الشبل ... ووصفت ذا النقصان بالفضل

كادت تميد الأرض من جزع ... وترى السماء تذوب كالمهل

وهي تصوره متمرداً على حقيقته، فهو من النعاج ويزعم أنه من الآساد، وكأنما الدنيا انقلبت صورها وأوشكت على الزوال، فالأرض تميد جزعاً، وكأن يوم القيامة حل موعده، فالسماء تذوب كالمهل أو الزيت المغلي. ولعل من الخير أن نعرض ثلاثة من كبار الهجائين في العصر هم الصيمري والحمدوني وابن بسام.

---

[١] طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤٢٥.

الصيمري[١]

هو أبو العنبس محمد بن اسحق، أصله من الكوفة، وتولى القضاء بالصيمرة فنسب إليها، وهي نهر بالبصرة عليه قرى وبلد وزروع، قدم سامراء في عصر المتوكل فقر به منه واتخذه نديماً له، لما كان يمتاز به من الفكاهة والتندير، وكأنما أتيح له مبكراً أن يفرغ للتأليف، إذ روي له ابن النديم في الفهرست طائفة كبيرة من المصنفات، ونجد بينها ما يتصل بالمنادمة، ككتب الأطعمة وكتاب الجوابات المسكتة. وكان عالماً بالنجوم، وله فيها كتابان. ولم يكن يجمع بين الهزل والعلم، فقط، فقد كان يضيف إليهما الشعر، ويقولون إنه كان خبيث اللسان، هاجي أكثر شعراء زمانه، ومع ذلك لم يصلنا من هجائه إلا أشعار قليلة من مثل قوله في إبراهيم بن المدبر، وكان قد تولى الولايات الكثيرة وترأس بعض الدواوين في سامراء وبغداد:

أسل الذي عطف الموا ... كب بالأعنة نحو بابك

وأذل موقفي العزيـ ... ـز على وقوفي في رحابك

وأراك نفسك مالكا ... ما لم يكن لك في حسابك

ألا يطيل تجرعي ... غصص المنية من حجابك

وله خبر طويل مع البحتري هجاه فيه وسخر منه سخرية مرة، إذ حدث الرواة أنه كان من عادة البحتري إذا أنشد المتوكل شعره أن يتشادق ويتزاور في مشيه مرة متقدماً ومرة متأخراً ويهز رأسه مرة ومنكبيه مرة أخرى ويشير بكمه ويقف عند كل بيت ويقول: أحسنت والله، ثم يقبل على المتوكل ومن في مجلسه فيقول: مالكم لا تقولون أحسنت؟ هذا والله ما لا يحسن أحد أن يقول مثله. وكان المتوكل يضجر من ذلك، فأقبل على الصيمري والبحتري ينشده مدحته فيه:

عن أي ثغر تبتسم ... وبأي طرف تحتكم

وقال له: أما تسمع ما يقول ؟ فقال له الصيمري: بلى، فمرني فيه بما أحببت، فقال: أهجه على هذا الروي، فحضرته على البديهة قصيدة هجاء طويلة من فنس الوزن والقافية، وفيها يقول:

يا بحتري حذار ويـ ... ـلك من قضاقضة ضغم[٢]

فبأي عرض تعتصم ... وبهتكه جف القلم

---

[١] أنظر في الصيمري وأخباره وأشعاره كتاب الأغاني (طبعة الساسي) ١٧٣/١٨ والفهرست ص ٢٢٢ وتاريخ بغداد ٢٣٨/١ ومروج الذهب ٩/٤ ومعجم الأدباء ٨/١٧ والنجوم الزاهرة ٧٤/٣ والوافي بالوفيات ١٩١/٢.

[٢] القضاقضة: الأسد . ضغم: مفترس .

ولقد أسلت بوالديـ ـك من الـهجا سيل العرم
يا بن الثقيلة والثقيـ ـل على قلوب ذوي النعم

ومضى يفحش في القصيدة ويقذع فيها إقذاعاً قبيحاً. ولا ريب في أن نظمه قصيدة طويلة بهذا النمط على البديهة يدل على شاعرية قوية. وظل خفيفاً على قلوب الخلفاء. يسلكونه في ندمائهم حتى عصر المعتمد، أو بعبارة أخرى حتى توفى في عصر هذا الخليفة لسنة ٢٧٥. وله يهجو طباخه المسمى صالحاً:

يا طيب أيامي بمعشوق ونحن في بعد من السوق
إذا طلبت الخبز من فارس ينفخ لي صالح بالبوق

وله بجانب أهاجيه مدائح لبعض الوزراء ورؤساء الدواوين، ومما احتفظت له المصادر به قطعة في مديح الحسن بن مخلد وزير المعتمد حين كان يتولى ديوان الضياع للمتوكل، وهي تطرد على هذا النمط:

زارني بدر على غصن قابلاً وصلى يقبلني
خلته لما أتى حلماً وهو روحي رد في بدني
إن لي عن مثله شغلا بمقال الشعر في الحسن
وأبيه مخلد فبه قد لبسنا سابغ المنن
كاتب قل النظير له فاضل في العلم واللسن

وشعره يسيل غذوبة، وكأنما كان يقول أكثره ارتجالاً، فلا تكلف فيه ولا تعمل، ومع ذلك لا نجد فيه هلهلة في النسيج، إنما نجد المتانة التي تجعله سائغاً في الآذان والأسماع. وله بعض نظرات وتأملات جيدة من مثل قوله:

كم مريض قد عاش من بعد يأس بعد موت الطبيب والعواد
قد يصاد القطا فينجو سليماً ويحل القضاء بالصياد

وهي فكرة دقيقة، فقد يعيش المرض الميئوس من شفائه المبكي عليه من محبيه وأودائه، ويموت الطبيب الصحيح المعافي. وبالمثل قد يصاد طائر، ويخطف الموت صائده، بينما ترد له حريته ويعود إلى رفرفته في الهواء طليقاً.

الحمدوني[١]

اسمه إسماعيل بن إبراهيم الحمدوني، جده حمدويه صاحب الزنادقة لعهد الرشيد الذي كان يتعقبهم ويأمر بحبسهم أو محاكمتهم، ونجد أبناءه وأحفاده في أواخر العصر العباسي الأول وفي هذا العصر يخدمون الخلفاء ويتخذونهم ندماء لهم. وعرف إبراهيم أبو إسماعيل بأنه كان ينادم المعتصم ثم الواثق ثم المتوكل، وكان ابنه أحمد على غراره نديماً للمتوكل ثم للمستعين. ولا نشك في أن إسماعيل كان على شاكلة أخيه وأبيه ينادم الخلفاء، وكل شيء فيه كان يعده لهذه المنادمة، غذ كان فكهاً خفيف الروح، وكان شاعراً، وصاحب قصص وأخبار ونوادر مضحكة، واتجه بشعره إلى الهجاء، ولكن أي هجاء؟ الهجاء الذي يلسع لسع الإبر من مثل قوله في سعيد بن حميد حين ولي رياسة ديوان الرسائل سنة ٢٤٩ ساخراً منه ومن ملابسه الديوانية الجديدة:

لبس السيف سعيد بعد ما ... عاش ذا طمرين لا نوبة له

إن لله لآيات وذا ... آية لله فينا منزله

فقد جرده من كل استحقاق للوظيفة وزيها والسيف الذي كان يتقلده من يشغلها لعصره، فهو خلو من كل كفاءة، حتى ليعد تعيينه فيها معجزة لله لا يعلم سرها سواه. وكان سعيد ممن أتقنوا فن الكتابة لعصره وبلغوا فيه شأوا بعيداً. ومن هجائه اللاذع قوله في بغيض:

سألتك بالله إلا صدقت ... وعلمي بأنك لا تصدق

أتبغض نفسك من بغضها ... وإلا فأنت إذن أحمق

فهو خليق بأن يشترك مع مبغضيه في بغض نفسه، وكأنما أصبح تمثالاً للبغض الكريه، لا عند الناس فحسب، بل أهم من ذلك عند نفسه. ويا ويل من كان يسلط عليه سهام هجائه، فإنه كان ما ينى يرسلها عليه. وحدث أن ممدوحه أحمد بن حرب المهلبي الذي طالما دبج فيه مدائحه وهب له طيلساناً أخضر لم يرضه، فمضى ينظم في طيلساناً مقطوعات، وكلما فرغ من مقطوعة نظم مقطوعة جديدة حتى أكملها خمسين مقطوعة طارت على ألسنة الأدباء والناس في عصره كل مطار منها:

يا بن حرب كسوتني طيلساناً ... مل من صحبة الزمان وصدا

---

[١] أنظر في الحمدوني وأخباره وأشعاره طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٧١ وفوات الوفيات ٢٤/١ والأغاني ٦١/*١٢ وترجمة أخيه أحمد في معجم الأدباء ٢١٧/٢ وتاريخ الطبري ٢٦٤/٩ والعقد الفريد (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة) ٢٩٨/٢ و ٢٤/٣ ، و ٢٤٣/٥ و ٢٨٧/٧ وديوان المعاني المعافي ٢٧٨/١ وزهر الآداب ٢٣٣ م وما بعدها.

إن تنفست فيه ينشق شقا　　أو تنحنحت فيه ينقد قداً

طال ترداده إلى الرفو حتى　　لو بعثناه وحده لتهدي

وألذع الأبيات البيت الأخير، بل كلها لاذعة، فالطيلسان أكل الدهر عليه وشرب، حتى لكأنما مل صحبة الدهر، فقد آن له أن يبلي ويستريح، وإن أي حركة فيه لتمزقة إرباً، وكل يوم ينخرق فيه خرق ويذهب به إلى دكان الرفاء، حتى لو بعث به إليه لعرف الطريق من طول ترداد سيره فيه. وتنوع هجاؤه لهذا الطيلسان القديم البالي، فهو تارة يضمنه بعض ألفاظ قرآنية من مثل قوله:

طيلسان لابن حرب جاءني　　خلعة في يوم نحس مستمر

فإذا ما الريح هبت نحوه　　طيرته كالجراد المنتشر

وقوله:

فيما كسانيه ابن حرب معتبر　　فانظر إليه فإنه إحدى الكبر

قد كان أبيض ثم ما زلنا به　　نرفوه حتى أسود من صدإ الإبر

وتتوالى ألفاظ القرآن في الأبيات كما هو واضح في ألفاظ: (في يوم نحس مستمر) و (كالجراد المنتشر) و (إحدى الكبر)، وكان يعرف كيف يضع اللفظة والآية القرآنية في مكانها السوي. وتارة كان يضمن هذا الهجاء بعض أبيات شعرية من مثل قوله:

وهبت لنا ابن حرب طيلساناً　　يزيد المرء ذا الضعة اتضاعاً

ولست اشك أن قد كان قدماً　　لنوح في سفينته شراعاً

وقد غنيت إذ أبصرت منه　　جوانبه على بدني تداعي

"قفي قبل التفرق يا ضباعا　　ولا يك موقف منك الوداعا"

وسخرية مرة أن يزعم أن هذا الطيلسان العتيق كان شراعاً لسفينة نوح في أعتق الأزمنة، وصور نفسه ملتاعاً إزاء تداعيه على جسده نفس لوعة القطامى التي اشتعلت في صدره عند فراقه لصاحبته "ضباعة". وقطع كثيرة كان يتغنى في نهايتها بأبيات على شاكلة بين القطامى تصور أساه، ودائماً يعرف كيف يختارها، مما جعل القدماء يقولون إنه كان يحسن التضمين في شعره سواء لأبيات الشعر أو الألفاظ والآيات القرآنية. ومر بنا في غير هذا الموضع أن سعيد بن أحمد بن خوسنداذ أهداه شاة هزيلة فمضى يكثر من نظم مقطوعات كثيرة في تلك الشاة مصوراً هزالها وبؤسها، صانعاً نفس ما صنعه بهجاء طيلسان ابن حرب من التضمين لأبيات الشعر المشهورة في الغزل والحب، من مثل قوله:

مرت على علف فقامت لم تسر عنه وغنت والمدامع تسجم

"وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي متأخر عنه ولا متقدم"

والبيت الثاني من قطعة في الغزل مشهورة لأبي الشيص كان يعجب بها معاصره أبو نواس إعجاباً شديداً. وعلى الرغم مما كانت منادمة الخلفاء توفره له من أموال كان يدعى الحاجة وأنه مقتر عليه في الرزق، وله يشكو ضيق عيشه، بينما غيره موسع له في الرزق ينعم بأسباب الترف والنعيم:

من كان في الدنيا له شارة فنحن من نظارة الدنيا

نرمقها من كثب حسرة كأننا لفظ بلا معنى

وله قصيدة رواها ابن عبد ربه في العقد الفريد نظمها معارضة للأمية تأبط شراً المشهورة، وفيها يتحدث عن حبه وفتوته وعزمه ومضائه وبأسه وشجاعته من مثل قوله:

هو سيف غمده بردتاه ينتضيه الحزم حين يسل

لا يشك السمع حين يراه أنه بالبيد سمع أزل[1]

وألفاظه في القصيدة وقوافيه تلتقي مع قوافي تأبط شراً وألفاظه، وكأنما قصد على ذلك قصداً يريد تضمين قصيدته نفس كلماته وله في الغزل قطع تصور حبه ولوعته فيه وظمأه إلى رؤية محبوبته وما قد يصلاه من عذاب الهجر ونيرانه، وله في وصف طروق طيف الخيال في المنام قطعة جيدة يقول في تضاعيفها:

وصل الحلم بيننا بعد هجر فاجتمعنا ونحن مفترقان

وكأن الأرواح خافت رقيباً فطوت سرها عن الأبدان

ولعل في كل ما قدمنا ما يصور خصب شاعريته. ومن أكبرا لدلالة على ذلك القطع الكثيرة التي أنشدها في هجاء شاة سعيد وطيلسان ابن حرب، وكأنه كان يستمد من نبع لا ينضب رصيده.

---

[1] السمع: الذئب . الأزل: المتولد بين ذئب وضبع.

ابن بسام[١]

هو علي بن محمد بن نصر بن منصور بن بسام، من بيت كتابة وأدب، كان جده نصر يتولى دواوين الخاتم والنفقات والأزمة في أيام المعتصم وهو من ممدوحي، أبو تمام، بينما كان أبوه محمد من ممدوحي البحتري، ويقول المسعودي إنه كان مترفاً حسن الزي ظاهر المروءة مشغوفاً بالبناء، ويروي عن بعض معاصريه ما يصور بذخه في بناء داره وفي ثيابه وطعامه وشرابه. وكان قد تزوج أمامة بنت حمدون النديم، والحديث عن بني حمدون في المصادر مضطرب، ويبدو أنها كانت أخت إسماعيل المترجم له آنفاً، ومنها أنجب ابنه عليا، وقد عني بتربيته أبوه، حتى اصبح شاعراً، وحتى اصبح التأليف إحدى هواياته. ويروي له ابن النديم ومترجموه كتباً مختلفة عن عمر بن أبي ربيعة والأحوص ومناقضات الشعراء، ويذكرون له ديوان رسائل، مما يدل على أنه كان كاتباً كما كان شاعراً. ونراه يتجه منذ نشأته بشعره نحو الهجاء، وقد يكون لخاله الحمدوني أثر في ذلك. وكان شيعياً، وربما كان لتشيعه أثر في ذلك أيضاً، فقد كان الشيعة ناقمين على الدولة والناس انصرافهم عنهم، بل كانت نقمتهم على الدولة أشد وأدهى، للزج بهم في السجون وتقتيلهم، وكأنما اتخذ الهجاء سلاحاً له ضد الخلفاء والمجتمع ويبدو أن أباه كان مولياً للعباسيين، ولعل هذا هو السر في كثرة أهاجيه له، حتى عد في العققة الذين لا يبرون آراءهم بل يجحدون فضلهم، وله في أبيه أهاج كثيرة من مثل قوله فيه وكان يكني أبا جعفر:

بني أبو جعفر داراً فشيدها ... ومثله لخيار الدور بناء

فالجوع داخلها والذل خارجها ... وفي جوانبها بؤس وضراء

وكانت قصراً عظيماً يدور من حوله بستان وتلمع أمامه بركة ويموج بالغزلان والطيور البهيجة الألوان. ويتمادى في هجائه له حتى ليقول فيه وفي داره أيضاً:

شدت داراً خلتها مكرمة ... سلط الله عليها الغرقا

وأرانيك صريعاً وسطها ... وأرانيها صعيداً زلقا[٢]

صورة سيئة من العقوق أن يتلقى من أبيه الحياة، فلا يشعر بأن له عليه ديناً إذ منحه الوجود وقام على تربيته، بل لكأنما جنى عليه جناية لا تغتفر، ولا يمكن أن يزيلها عن نفسه ويمسح

---

[١] أنظر في ابن بسام وأخباره واشعاره الفهرست ص ٢٢٠ ومعجم الشعراء ص ١٥٤ وتاريخ بغداد ٦٣/٢ ومروج الذهب للمسعودي ٣٠٦/٤ وما بعدها وزهر الآداب ٨٧/٣ وما يليها وذيل زهر الآداب ص ١٨٠ وديوان المعاني ٢٣/٢ ، ٢٣٤ والنجوم الزاهرة ١٨٩/٣.

[٢] صعيداً زلقاً: أرضا ملساء.

أوضارها عن جسده إلا اللعنات يصبها على أبيه. ومضى يصبها على الخلفاء والوزراء والكتاب وكبار رجال الدولة غير هياب ولا وجل، بل لكأنما كان يبحث عمن ينتقم منه ويطير به طيرة بطيئاً سقوطها. وكان من أوائل من تعرض لهم بالهجاء الموفق صاحب البلاء العظيم في حروب الزنج والصفا، ونوراه ينظم فيه وفي ولاته ووزرائه وموظفيه قصيدة يستهلها بقوله:

أيرجو الموفق نصر الإله وأمر العباد إلى دانيه

ويأخذ في هجاء ولاته من مثل الطائي أمير البصرة واسحق بن عمران أمير الكوفة ووزرائه من مثل إسماعيل بن بلبل، وصاعد بن مخلد وكان نصرانياً وأسلم واستوزره الموفق، ويصيح:

فخل الزمان لأوغاده إلى لعنة الله والهاوية

ويظله عصر المعتضد المعروف بجبروته وأنه كان يلقى الأسد وحده وأنه إذا غضب على قائد أمر أن تحفر له حفيرة ويلقى فيها وتطم عليه، ومع ذلك نراه لا يخاف بطشه ولا يخشى بأسه، إذ نراه يتعرض له بالهجاء، وتارة يقذع فيه وتارة يخز وخز الإبر من مثل قوله في احتفاله بختان ابنه المقتدر:

انصرف الناس من ختان يرعون من جوعهم خزامى[1]

فقلت لا تعجبوا لهذا فهكذا تختن اليتامى

وهو يصفه بالخيل الشديد وأن احتفاله بهذا الختان كان بائساً، حتى لكأنما هو ختان بعض اليتامى الذين لا يجدون من يتيح لهم احتفالاً عظيماً بختانهم.

ونراه يكثر من هجاء إسماعيل بن بلبل، على نحو ما أكثر من هجاء صاعد ابن مخلد، وفيه يقول:

سجدنا للقرود رجاء دنيا حوتها دوننا أيدي القرود

فما نالت أناملنا لشيء عملناه سوى ذل السجود

وكان نصيب عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير الموفق وأخيه الخليفة المعتمد من أهاجيه كبيراً، تارة يصفه بخطل الرأي، وتارة يهدده بسوء المصير. ونراه ينتهز فرصة وفاة ابنه الحسن فيهجو ابنه القاسم، مادحاً للحسن حتى يملأ نفس القاسم غيظاً وحنقاً إذ يقول:

قل لأبي القاسم المرجي قابلك الدهر بالعجائب

مات ملك ابن وكان زيناً وعاش ذو الشين والمعايب

---

[1] صعيداً زلقاً: أرضا ملساء.

حياة هذا كموت هذا فلست تخلو من المصائب

ولاكت الألسنة البيت الأخير وسمعه المعتضد فنصح وزيره القاسم أن يوظفه في عمل وأن يبره ويصله حتى يكف عن هجائه، فولاه بريد الصيمرة وما والاها، وقيل بل ولاه بريد قنسرين والعواصم، وبقي في عمله إلى آخر أيام المعتضد، ويبدو أن العباس بن الحسن وزير المكتفي رأى الاستغناء عنه، ولعله لذلك أكثر من هجائه، ومر بنا بعض هذا الهجاء في حديثنا عن نشاط الشعر، وفيه يقول:

تحمل أوزار البرية كلها وزير بظلم العالمين يجاهر

واتخذ من شعره سياطاً يلهب بها ظهور ابن الفرات والخاقاني وزيري المقتدر وله في الأخير أهاج كثيرة تصور خياناته لأموال الأمة وما كان يدفع إليه الناس من تقديم الرشوة في كل عمل يحققه لهم، وسبق أن عرضنا بعض هذا الهجاء في حديثنا عن فساد الحكم حينئذ. وكانت له مناقضات مع الشعراء يقصد بها إلى الدعابة، ومر بنا في حديثنا عن ابن المعتز أنه نظم فيه مقطوعة دالية داعبه فيها واصفاً ثقله، ونرى ابن بسام يرد عليه بقوله على نفس طريقته:

فقدتك يا قذاة في شراب دخلت من الدناءة كل باب

وأثقل– حين تبدو– من رقيب وأكذب– حين تنطق– من سراب

وأغدر للصديق من الليالي وأنكى للقلوب من العتاب

وكان يناقض جحظة البرمكي كثيراً، وكان على غراره كثيرة الهجاء، وكان قبيح الخلقة تقتحمه العيون، وصور ذلك ابن بسام عابثاً به وبقبحه، إذ يشكره على إقباله عليه بدابته وانصرافه عنه بوجهه الذميم، يقول:

لجحظة المحسن عندي يد أشكرها منه إلى المحشر

لما أراني وجه برذونه وصانني عن وجهه المنكر

وعلى هذا النحو لم يسلم من هجاء ابن بسام خليفة ولا وزير ولا أمير ولا صغير ولا كبير، بل لم يسلم منه أبوه وأهل بيته. وله وراء هذا الهجاء مديح لبعض الوزراء مثل ابن مقلة ونعت لبعض الأزهار مثل النرجس، وله في الزهد وفناء لحياة أبيات طريفة تجري على هذا النمط:

أقصرت عن طلب البطالة والصبا لما علاني للمضيب قناع

لله أيام الشباب ولهوه لو أن أيام الشباب تباع

فدع الصبا يا قلب واسل عن الهوى ما فيك بعد مشيبك استمتاع

وانظر إلى الدنيا بعين مودع فلقد دنا سفر وحان ودع

والحادثات موكلات بالفتى والناس بعد الحادثات سماع

والأبيات تصوره قد وخطه الشيب وأخذ يفكر في غده ويستعد لمصيره، بعد تلك الرحلة الطويلة التي كان يجاهد فيها مجتمع بأهاجيه حتى وفاته سنة ٣٠٣ للهجرة. ومن المؤكد أن أهاجيه تصور العصر في صورة أدق من تلك التي يصورها المديح، وأن الحياة فيه لم تكن صافية ولا رائقة، بل كانت كدرة قاتمة، اختلت فيها الموازين والقيم اختلالاً شديداً.